



جوانب مُضَيِّئة
في
تاريخ العثمانيين الأتراك
زياد أبو غنيم





جوانب مکتبه فی تاریخ
الطوائف الاثریه

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الرقم المتسلسل (٧٢)

نسخة
الطبع

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

عمان - تلخون ٣٧٧٧١ - ص.ب ٨٥٧

نحو صياغة أمانة لتاريخنا الاسلامي



جوانب مضيئة في تاريخ

العثمانيين الأتراك

مكتبة مدرسة سيف العربي الثانوية بكلياء

الرقم الخاص : ٩٥٦, ١

١٩٠٠

تأليف
الرقم العام

زياد أبو غنيمة

تاريخ النشر

٢٠٠٤

٢٠٠٤

دار الفرقان للنشر والتوزيع

جبل الحسين ع. ك. ط. ١١٠٩٣٧ - ص. ب. (١١١٥٢١)

تلفون (١١٠٩٣٧) - ص. ب. (١١١٥٢١)

مقدمة الكتاب

باسم الله خير الأسماء ، في الأرض وفي السماء ..
وأصلي وأسلم على قدوتنا ، وزعيمنا ، محمد خاتم
الأنبياء ..

وأحمد الله عز وجل حمداً كثيراً ، واستعينه ،
واستهديه ، وآتوكل عليه ، وأسأله عز وجل أن يجعل
هذا الجهد المتواضع خالصاً في سبيله .

وبعد ...

فقد كان هذا الدين ، منذ أن شاءت إرادة الله عز
وجل ببزوغ فجره ، وما برح ، هدفاً لحقد الحاقدين ،
ومكر الماكرين ، وكيد الكائدين ، وما فتئت سهام أعداء
الله ، على اختلاف مللهم ، وشعاراتهم ، تستهدف هذا
الدين ، قرآناً ونبوة ، وتاريخاً .

« ان ينقذوكم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيهِمُ وَالسُّنَنُكُمْ بِالسُّوءِ وَوَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ » .

سورة الممتحنة ٢

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُلَاقُونَكُم حَتَّى يَتَرَدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ
أَن اسْتَطَاعُوا ... » من آية ٢١٧ البقرة .

ولعلنا جميعاً نتفق على أن أسلحة الافتراء ،
والتشويه ، والبهتان ، والدس ، وإشاعة الباطل ،
ضد هذا الإسلام العظيم ، كانت ، وما برحت ، من
أخبث الأسلحة التي يشهرها أعداء الله ضد الإسلام ،
قرآناً ، ونبوة وتاريخاً .

ولقد وجهوا سهام حقدهم ، أول الأمر ، إلى قرآنا
الكريم ، فطفقوا ، قاتلهم الله ، يحاولون بكل ما جُبلوا
عليه من خبث ومكر ، التشكيك بالقرآن الكريم .

« وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه
لعلكم تغلبون » فصلت آية ٢٦ .

« وإنّ منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه
من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله
وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم
يعلمون » آل عمران : آية ٧٨ .

ولكن سهام أهل الكفر التي استهدفت كتاب الله
عز وجل تكسرت أمام رعاية الله عز وجل .

« وإنّ كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك
لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً * ولولا أنّ

ثبتناك لقد كدت تركز اليهم شيئاً قليلاً » . الاسراء :
٧٣ - ٧٤ .

ولما أدرك أعداء الاسلام استحالة نجاح محاولاتهم
للافتراء على القرآن الكريم ، عمدوا الى سنة نبينا عليه
أفضل الصلاة والسلام ، فطفقوا يدسّون عليها افتراءاتهم
بما اصطلاح على تسميته «بالاسرائيليات» ، ولكن الله
عز وجل عيأ لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نفراً من
العلماء المسلمين المخلصين الذين كشفوا زيف تلك
الاسرائيليات وطهروا السنة النبوية المشرفة منها .

أما المجال الذي نجحوا فيه نجاحاً كبيراً في الافتراء
والدس والتشويه فقد كان تاريخ هذه الأمة الاسلامية ،
لدرجة أننا لا نكاد نجد حقبة تاريخية واحدة من تاريخ
الأمة الاسلامية ومهما قصرت فترتها الزمنية قد سلمت
من سهام الافتراء والتشويه والدس ، بما في ذلك الحقبة
التي شرفها رسولنا صلى الله عليه وسلم بقيادته ، وما
حديث الافك عنا ببعيد .

ويزداد الالم في النفوس المؤمنة أن هذه الهجمة
الشرسة من الافتراء والتشويه ضد تاريخ امتنا الاسلامية

لا تقابلها هجمة مضادة بنفس المستوى ، تنب عن تاريخ أمتنا تلك الافتراءات ، وتبرئته من تلك الاباطيل والاكاذيب .

ولقد تعرض تاريخنا الاسلامي ، عبر مراحل المتعاقبة ، الى حملات تشويه متعمدة ، تولت كبرها الأحقاد المعادية للإسلام ، صليبيّة ، وصهيونية ، وما تفرع عنهما من مؤسسات تبشيرية ، وماسونية ، واستشراقية ..

ولعلي لا أكون مبالغاً ، اذا زعمت أن الحقبة التي شغلها العثمانيون الأتراك في سفر تاريخنا الاسلامي ، كانت عرضة لأكثر حملات التشويه ، شراسة ، وخبثاً .
ولكاني بالكثير من القراء ، يتساءلون !!

لماذا استأثر العثمانيون الأتراك بأشد حملات التشويه شراسة ، وخبثاً .. ؟

وأسارع فأجيب على هذا التساؤل .

انه الحق .

الحقد على الاسلام أولاً ، والحقد على الأتراك ثانياً ،
والحقد على العثمانيين ثالثاً ..

أقول هذا ، وبين يدي الدليل .

انه شهادة شاهد من أهلها ، والفضل ، كما قيل ،
ما شهدت به الأعداء .

فلقد عبر عن هذا الحقد ، أبلغ تعبير ، وأصدق ،
المستشرق الألماني فولدكه ، في مقال نشره في مجلة
« الاسلام » (Der Islam) الألمانية في عام ١٩٢٤ ،
وأورده المستشرق الروسي بارتولد في كتابه « تاريخ
الترك في آسيا الوسطى » .

يقول فولدكه :

« ان دخول الترك في العالم الاسلامي المتحضر بعد
سقوط دولة السامانيين الايرانية ، كان نكبة هائلة في
تاريخ العالم كله » .

وقبل ان يدخل الأتراك العثمانيون في الاسلام ،
لم يكونوا موضع اهتمام جاد من المؤرخين المسلمين وغير
المسلمين ، فلم يرد ذكرهم الا من خلال اشارات عابرة .

وحين دخل الأتراك العثمانيون في الاسلام ، انقلبت
الصورة ، وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير

المسلمين ، بَيِّنْ أَنَّ المؤرخين من غير المسلمين أبدوا
اهتماماً ملحوظاً بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين
المسلمين .

ولأول وهلة يخيل للمرء أن اندفاع المؤرخين من
غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين المسلمين ، كان
ينطلق من منطلق علمي سليم ، هدفه تتبع تاريخ
العثمانيين المسلمين بأمانة علمية منصفة ، ولكن ما أن
يطلع المرء على ما أفرزته جهود المؤرخين من غير المسلمين
من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين ، حتى يكتشف
أن الغالبية العظمى منهم قد تجاهلوا ، وتناسوا ،
مقتضيات الأمانة العلمية ، والانصاف ، بل أطلقوا العنان
لأحقادهم الظاهرة والباطنة ، لتكون هي المنطلق الذي
ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ العثمانيين المسلمين
والصاق عشرات الافتراءات التي لا تستند على أية بيانات
تاريخية ، بالأتراك العثمانيين المسلمين .

وليس غريباً أن تصدر مثل تلك الافتراءات عن
أقوام فضح الله عز وجل نواياهم تجاه الاسلام والمسلمين
في قوله تعالى جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا
يألوكم خبالاً وددوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم

وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم
تعقلون » سورة آل عمران : ١١٨ .

ولقد وجه الحاقدون حملاتهم ضد العثمانيين الأتراك
في اتجاهين متوازيين :

الاتجاه الأول :

ويتمثل في تجاهل جميع الجوانب المضيفة في تاريخ
العثمانيين الأتراك ، مما أدى الى طمس هذه الجوانب
المضيفة ، تحت جبال عاتيات من ركام الأحقاد المعادية
للاسلام .

الاتجاه الثاني :

ويتمثل في الصاق العديد من الافتراءات الكاذبة ،
الظالمة ، بتاريخ العثمانيين الأتراك .
ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقد الأسود ،
أولئك المؤرخين على تجاهل وتناسي أبسط قواعد
مقتضيات الأمانة العلمية في عملية التأريخ للأتراك
العثمانيين المسلمين ، فإن الذي نستغربه أشد الاستغراب ،
بل ونستهجنه بشدة ، أن ينزلق الكثير من المؤرخين
المسلمين ، في حماة عمليات التزوير ، والتشويه ،
والبهتان ، التي ألصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين .

ولئن انطلقت حملات التشويه والتشكيك على المسلمين عصوراً طويلة ، فإن من العار أن يستمر هذا الحال ، ولا بد من التصدي لحملات التشويه ، لكشف زيفها ، وتفنيد بيئّاتها ، ان وجد لها بينات ، فما عهدنا بهتانا يستند الى بيئّات .

وقياماً بحق الأخوة الاسلامية ، ووفاء لها ، وغيرة على الحق والحقيقة ، رأيت من واجبي ، أن أساهم هذه المساهمة المتواضعة في ازاحة ركّام الأحقاد المعادية التي حرصت على طمس الكثير من الجوانب المضيئة ، المشرقة ، التي ازدانت بها صفحات تاريخ أخوتنا في الاسلام ، الأتراك العثمانيين .

وساركنز الحديث في هذا الكتاب في اتجاهين :

الاتجاه الأول :

ويتمثل في ازاحة ركّام الأحقاد المعادية للاسلام التي طمست لقرون طويلة العديد من الجوانب المضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك وأبرزها :

أولاً : التزام العثمانيين بالاسلام ، وانطلاقهم في تأسيس دولتهم من منطلق الالتزام بالاسلام .

ثانياً : اخلاص معظم سلاطين الدولة العثمانية لمفهوم الجهاد في سبيل الله ، وقيامهم بواجب الدعوة الى الاسلام ، خلافاً لما يزعمه الحاقدون ، من أنهم كانوا مجرد محاربين قساة القلوب متحجري العاطفة .

ثالثاً : ما أبداه العثمانيون من تسامح ديني كريم تجاه غير المسلمين في الدولة العثمانية ، خلافاً لما يزعمه الحاقدون من أنهم كانوا يضطهدون غير المسلمين .

رابعاً : ترفع العثمانيين عن الوقوع في متاهات العصبية القبلية أو العرقية أو القومية ، واصرارهم على أن يكون الانتماء الاسلامي فوق أي انتماء قبلي أو عرقي أو قومي .

خامساً : الدور الرائد الذي لعبه العثمانيون الأتراك في إعادة لحمة الوحدة الاسلامية لجميع شعوب الأمة الاسلامية ، وتجميع قواها تحت راية واحدة طوال أكثر من خمسة قرون متتالية ، بعد فترة عصيبة شهدت تشرد المسلمين وتفرق كلمتهم .

سادساً : الموقف المبدئي الصلب الذي يتبغى أن يسجل للعثمانيين بماء الذهب تجاه قضية فلسطين ، حيث أصرّوا - حتى وهم في أشد حالات ضعفهم على -

عدم التفريط بذرة تراب واحدة من أرض فلسطين
المسلمة المباركة .

الاتجاه الثاني :

ويتمثل في كشف زيف الافتراءات الظالمة التي
الصقت بالعثمانيين زورا ، وظلماً ، وبهتاناً ، وساركز
في هذا المجال على الافتراءات التالية :

أولاً : الفرية التي تزعم أن سلاطين بني عثمان
كانوا يملكون الحق - بموجب فتوى شرعية مزعومة -
في قتل أبنائهم ، واخوانهم ، وأقربائهم ، حفاظاً على
عروشهم .

ثانياً : الفرية التي تزعم أن السلطان محمد الفاتح،
أنعم به من فاتح ، قد أباح القسطنطينية لجنوده ،
عدة أيام ، قاموا خلالها بأعمال النهب والسلب ، والقتل،
والاعتداء على الأعراس .

ثالثاً : الفرية التي تزعم أن العثمانيين كانوا
ينتزعون أطفال النصارى قسراً ، ويجبرونهم على الاسلام،
ليشكلوا منهم جيشهم الذي عرف في التاريخ باسم
الجيش الجديد ، « يني تشرى » ، وهو الذي اصطلح
على تسميته بالجيش الانكشاري .

رابعاً : الفرية التي تزعم أن العثمانيين الأتراك كانوا أمة حرب وقتال ، وأنهم لم يكونوا أمة دعوة وهداية .

واني لأحسب أن القاريء الفطن ، سيدرك من خلال ما سأورده من حقائق في هذا الكتاب ، أن الحاقدين على الاسلام ، إنما يهدفون من وراء التركيز على تحريف تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين ، والصاق الافتراءات الكاذبة بهم ، الى الاساءة الى الاسلام ذاته ، من خلال الاساءة الى الأتراك العثمانيين المسلمين .

أقول هذا ، ولا أنفي ، أن يكون في تاريخ بني عثمان ، وخاصة في عصورهم المتأخرة بعض الأمور التي لا تنسجم مع الاسلام ، وتتعارض مع أحكامه ، وليس الذنب في ذلك ذنب الاسلام ، وإنما ذنب المسيء نفسه .

وبعد ...

فانني أجد من واجبي أن أتوجه بالنداء الى كل غيور على الحق والحقيقة ، ليبادر الى اعادة تقييم معلوماته عن الأتراك العثمانيين .

انني أدعوهم لمحاكمة هذه المعلومات واخضاعها للمنطق العلمي ، وأن يحرصوا على التثبت من البيّنات

التي تدعمها ، وأنا كفيل بأنهم لن يجدوا لهذه المعلومات
المفتراة أية بيّنات تقوى على الصمود في وجه الحقائق
الناصعة .

انتي أناشد كل عربي ومسلم ، وخاصة جيل
المستقبل المنشود ، أن يلفظوا من أفكارهم أية معلومات
خاطئة تسربت اليهم من قنوات حاقدة على الاسلام
والمسلمين ، وأن يتبرءوا من أية مشاعر جفاء ، ولا أقول
عداء ، للعثمانيين المسلمين .

ولعلي أكون قد قمت بواجبي كمسلم في الذب عن
سمعة اخوتنا في العقيدة الأتراك العثمانيين ، وعسى
أن يترث المؤرخون الغيورون على الاسلام ، قبل أن
يسمحوا لالسنتهم وأقلامهم بأن تردد مزاعم الحاقدين
على الاسلام من غير تمحيص وتدقيق ، فلقد آن الأوان
لإعادة الحق الى نصابه ، وانه لعار وأي عار أن تستمر
أجيالنا المسلمة في المدارس والمعاهد والجامعات ، في تلقي
هذه الافتراءات ، وكأنها يقين لا يرقى اليه شك .

اللهم اني قد بلغت ... فاشهد

زياد محمود أبو غنيمة

نبذة تاريخية موجزة عن

العثمانيين الأتراك

يتفق معظم المؤرخين المسلمين على القول أن الأتراك ينتسبون إلى يافث ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام ، وبعد وفاة يافث خلفه في زعامة قومه ابنه ترك بن يافث ، وكان أعقل اخوانه ، وأرشدهم ، فسار بقومه إلى تركستان حيث أصبحت الموطن المستقر للأتراك ، ولم يلبث نسل ترك بن يافث أن تكاثر بمرور الزمن ، حتى تشعبوا إلى شعوب كثيرة كان في مقدمتها شعب الغز ويطلق عليه بالتركية اسم (Oguzlar) ، وشعوب التتار ، والمغول ، والقبجق ، والخزر ، والبجناك .

ويلتقي معظم المؤرخين على القول أن العثمانيين الأتراك ينتمون إلى شعب الغز ، وينحدرون من عشيرة صغيرة تنتمي إلى قبيلة تدعى قايي ، كانت تستوطن أراضي دولة خوارزم المحيطة ببحيرة خوارزم أو بحر الخزر الذي يطلق عليه الروس الآن اسم بحر آرال بعد أن أزالوا اسمه الاسلامي « بحر الخزر » .

أما عن دخول الأتراك في الإسلام ، فإنّ أرجح الروايات تشير الى أن انتشار الإسلام بين الأتراك بدأ بشكل تدريجي ، وبصورة غير منتظمة منذ قام القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي في أثناء خلافة سليمان ابن عبد الملك الأموي بفتح بخارى ومرو وسمرقند وغيرها من بلاد الترك في عام ٩٨هـ وفق عام ٧١٧م ، ثم نشطت الدعوة الى الإسلام بين الأتراك في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على يد أشرس بن عبد الله السلمي ، حين أسلم عدد كبير من الترك فيما بين عامي ١٠٥ - ١٢٥هـ وفق عام ٧٢٤ - ٧٤٣م ، وفي زمن المأمون أسلم ملك اشروسنة التركي المسمى كاس وأسلم معه قومه .

ويمكن القول أن نقطة التحول الحاسمة في اعتناء الأتراك الى الإسلام حدثت في خلافة المطيع لله ابن المقتدر العباسي ، عندما أسلم زعيم الترك قره خان في عام ٣٤٩هـ وفق عام ٩٥٤م .

ويعتبر عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه المؤسس الأول للدولة العثمانية ، وقد انتقلت زعامة الأتراك العثمانيين الى عثمان في عام ٦٨٧هـ - ١٢٨٨م ، اثر

وفاته أبيه أرطغرل ، وقام العالم المؤمن اده بالي ، وهو
والد زوجة عثمان ، بتسليم عثمان سيف والده في احتفال
مهيّب ، وأطلق عليه لقب الغازي ، تيمناً بالحديث
الشريف :

« مَنْ مات ولم يغز ، ولم ينوِ الغزو ، مات
ميتة جاهلية » .

ويعتبر عام ٦٩٩هـ - ١٣٠٠م ، عاماً حاسماً في تاريخ
بني عثمان ، وضع فيه عثمان بن أرطغرل الحجر الأساسي
في بناء الدولة العثمانية ، ففي ذلك العام ، أغارت
جموع التتار على سلطنة قونية السلجوقية التي كان
عثمان يعمل في خدمة أميرها علاء الدين كيقيباذ الثالث ،
وأسفرت الغارة عن مقتل الأمير علاء الدين وولي عهده
الأمير غياث الدين ، فأصبحت السلطنة بدون سلطان ،
فوجد عثمان في ذلك فرصة ليعلن زعامته على السلطنة
تحت اسم « بادي شاه آل عثمان » ، معلناً بذلك ولادة
إمارة بني عثمان ، التي أصبحت كما يورد الدكتور عبد
الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأتراك » ، (النفس
الوحيد للحماس الديني في الاسلام ، فجاءها كل راغب
في الجهاد ، واجتذبت إليها أعداداً من المتحمسين لنصرة
الدين) .

ولم تلبث هذه الامارة الصغيرة أن أصبحت بعد اقل من قرن دولة عظمى ترتعد فرائص أوروبا النصرانية هلعاً وخوفاً منها ، ولم تلبث هذه الدولة أن قضت على الامبراطورية البيزنطية ، واتخذت من عاصمتها القسطنطينية عاصمة جديدة لدولة بني عثمان بعد أن أتم الله عز وجل فتحها على يد السلطان محمد الفاتح في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى من عام ٨٥٧هـ وفق التاسع والعشرين من أيار من عام ١٤٥٣م .

وتعد الفترة الزمنية التي شغلها الأتراك العثمانيون في سفر تاريخنا الاسلامي أطول فترة استطلت فيها الأمة الاسلامية براية واحدة ، فقد حكمت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون متتالية ، منذ أن أسسها عثمان بن أرطغرل في عام ٦٩٩هـ - ١٣٠٠م ، وإلى أن تمكن مصطفى كمال أتاتورك ، بتحريض من أعداء الاسلام ، من إلغاء السلطنة العثمانية في عام ١٩٢٣م ، ثم أتبع ذلك بإبطال مفعول الخلافة الاسلامية في الثالث من آذار من عام ١٩٢٤م .

الدولة العثمانية

دولة إسلامية المنطلق ، والراية ، والهدف

في وصية عثمان ابن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية ، لابنه أورخان ، كما يوردها الصدر الأعظم كامل باشا ، في كتابه المطبوع باللغة التركية القديمة « تاريخ سياسي دولة عليية عثمانية » « أي التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية » ، تطالعنا هذه العبارات :

اعلم يا بني ، أن نشر الاسلام ، وهداية الناس اليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسالك الله عز وجل عنها ..

✦ وينقل المؤرخ التركي المعاصر قادر عصر أوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » ، عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول :

يا بني ، انني أنتقل الى جوار ربي ، وأنا قحور بأنك ستكون عادلا في الرعية ، مجاهداً في سبيل الله ، لنشر دين الاسلام .

يا بني ، أوصيك بعلماء الأمة ، أدِّمِ رعايتهم ، وأكثر
من تبجيلهم ، وانزل على مشورتهم ، فانهم لا يأمرُونَ إلا
بخير .

يا بني ، اياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله عز وجل ،
وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة ، فانهم
سيبدلونك على الخير .

واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو
طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ،
وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا .

* وينقل المؤرخ التركي المعاصر عبد القادر زاده
أوغلو في كتابه « التاريخ العثماني المصور » ، عبارات
أخرى من وصية عثمان تقول :

وصيتي الأولى لأبنائي ، ولجميع الاعزاء علي ، أن
لا يتركوا الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر دين
الاسلام الجليل ، ورفع راية محمد صلى الله عليه وسلم
عالياً . وليكن كل وقتكم لخدمة الاسلام ، ونشر كلمة
التوحيد في ربوع العالمين . واني أقول لكم : انني
أدعو الله عز وجل أن يحرم من شفاعة محمد صلى الله

عليه وسلم يوم القيامة ، كل واحد فيكم يبتعد عن طريق الاسلام ، ويظلم الناس ، ويترك الجهاد .

— وفي وصية السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ، لولده بايزيد ، كما تروي معظم المصادر التركية ، تطالعنا هذه العبارات :

يا بني ، ان نشر الاسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعت .

يا بني ، اجعل كلمة الدين فوق كل كلام ، وإياك أن تغفل عن أي أمر من أمور الدين ، وأبعد عنك الذين لا يهتمون بأمر الدين ، وإياك أن تجري وراء البدع المنكرة .

يا بني ، قرب منك العلماء ، وارفع من شأنهم ، فانهم ذخيرة الأمة في الملمات .

يا بني ، حذار أن تغرك كثرة الأموال والجنود ، وإياك أن تخالف أمر الشريعة في أي شأن ، واحرص على الدين فانه سر انتصارنا .

ترى ، هل هناك من دليل أنصع من هذه الأدلة
على صدق انتماء العثمانيين الاسلامي ، وحرصهم على
اضفاء الهوية الاسلامية على دولتهم ؟

قد يقول قائل : ان هذا مجرد كلام عاطفي صدر عن
أناس يواجهون سكرات الموت ، فلا يعتد بها .

لهؤلاء المتشككين ، ان وُجِدُوا ، أسوق دليلا آخر ،
يتمثل في نصوص الواجبات التي أناطها دستور الدولة
العثمانية بسلطين الدولة ، أنقلها من كتاب الدكتور
عمر عبد العزيز عمر « محاضرات في تاريخ الشعوب
الاسلامية » .

— هذه الواجبات هي :

أولا : ان يخضع السلطان لاحكام الشريعة
الاسلامية خضوعاً كاملاً .

ثانية : ان ينجل الشريعة الاسلامية ويبجل
علماءها .

ثالثة : ان يحمي مقدسات المسلمين ، وينظم شؤون
الحج بعناية .

رابعة : ان يدافع عن تخوم المسلمين ضد أعدائهم .

ولمن أراد مزيداً من الأدلة على صدق انتماء العثمانيين
والتزامهم بالاسلام ، أورد هذه الأدلة :

✽ يقول الأستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم في كتابه
« العرب والترك » :

لقد أقبل الترك على دين محمد صلى الله عليه وسلم
أفواجاً ، وانقلبوا من خصوم الدِّاء للاسلام ، الى حُمَاة
للالسلام شديدي التعصب له .

✽ ومما يؤكد الهوية الاسلامية للدولة العثمانية ،
أن الأتراك أطلقوا على الجندي التركي اسم (Mahmatcik)
أي الجندي المحمدي ، وما برحوا حتى يومنا هذا يطلقون
عليه هذا الاسم ، وذلك تيمناً باسم سيد المجاهدين
محمد عليه الصلاة والسلام .

كما أن العديد من المراسيم والقوانين التي كانت
تصدر عن الدولة العثمانية ، كانت تصدر باسم الدولة
العلية المحمدية ، تيمناً باسم النبي الكريم صلوات الله
وسلامه عليه ، وتأكيداً للهوية الاسلامية للدولة .

✽ ويقول المؤرخ التركي أحمد رفيق في موسوعته
« التاريخ العمومي الكبير » ، « بيوك تاريخ عمومي » .

لقد كان عثمان ابن أرطغرل شديد التدين ، وكان يؤمن أن نشر الاسلام وتعميمه واجب مقدس بالنسبة اليه .

* ويؤكد الاستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأتراك » الهوية الاسلامية للدولة العثمانية بقوله :

— لقد تعلق الناس بالسلطان الذي وحدهم ، فجعل بلادهم سوقاً واحدة ، وحماهم من العدو الافرنجي ، ورفع راية الاسلام زمناً طويلاً ، وطبق أحكام الشريعة .

* وقد نص القانون الذي وضعه السلطان سليمان القانوني ، والذي حدد بموجبه الشروط التي ينبغي أن تتوفر في كل شخص يتولى منصب الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) ، أو منصب الوزارة ، على أن يكون ذلك الشخص مواظباً على أداء الصلاة في أوقاتها .

وقد عثرت على نص هذا القانون ، في العدد الثالث الصادر في شهر آذار من عام ١٩١١م ، من مجلة «المشرق» التي كانت تصدر عن ادارة كلية القديس يوسف ، والتي كان يترأس تحريرها الأب لويس شيخو اليسوعي .

✽ ولعل أبلغ الأدلة وأقواها حجة على صدق التزام الأتراك بالاسلام ، ما شهدت به الاعداء ، والفضل ما شهدت به الاعداء . .

فقد نقل الاستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب والترك » عن المؤرخ الفرنسي ده سون ، الذي عاش ربع قرن في ربوع الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، أن العثمانيين التزموا التزاماً صارماً بكل ما أوجبه القرآن ، وأن الدولة كانت تسترشد برأي علماء الاسلام ، لان الواجب كان يقضي بالرجوع الى رأي الشريعة الاسلامية في أي شأن من شؤون الدولة العسكرية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية ، أو القضائية .

يقول المؤرخ الفرنسي ده سون (Dohsson) :

سواء في زمن السلم ، أو في شؤون الحرب ، وسواء لوضع قانون سياسي ، أو نظام عسكري ، وسواء القصاص من وزير أو قائد عام ، فان الوزارة كانت تلجأ الى المفتي تستشيريه في الأمر ، وكثيراً ما كانت تتفاوض معه في القضية التي ستعرض عليه ، وذلك لانه لم يكن يكفي الاطمئنان الى شرعية الحكم فحسب ،

بل كان الواجب الرجوع الى رؤساء الدين (التعبير
الأصح هو العلماء أو الفقهاء) في قضايا الدولة .

وينقل المؤرخان الغربيان جونيان وفان قافار ، في
كتابهما « تاريخ العالم » ، أن مفتي الاسلام كان مرجع
السلطنة العثمانية في الأمور الشرعية والمدنية على حد
سواء ، وأنه كان يتمتع بمرتبة تسمو على مرتبة الوزراء ،
وكان ذلك يجري مراعاة للروح السائدة التي تضع الدين
فوق كل اعتبار آخر .

* ويؤكد حقيقة التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام،
المؤرخ البريطاني هيربرت آرمز جيبونز في كتابه
« تأسيس الامبراطورية العثمانية » الذي ألفه عام
١٧٩٤م ، والذي نشر في عام ١٩١٦ :

يقول جيبونز بلهجة تستثير الأحقاد الصليبية ضد
الاسلام والأتراك معاً :

ان قيام الدولة العثمانية كان بدافع التعصب
الديني الذي اشتهر به الأتراك .

* ويروي الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه
« العرب والترك » أن التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام
كان من الصرامة بحيث أن مفتي الاسلام في زمن السلطان

سليم الثالث ١٢٢٩هـ - ١٨٠٧م ، أفتى بخلع السلطان
عن عرش السلطنة لأنه أدخل على الدولة بعض أنظمة
الفرنجة المنافية للإسلام ، وتم خلع السلطان سليم
الثالث عن عرش السلطنة فعلا بموجب تلك الفتوى .

ولقد كان موقف السلطان مراد بن أورخان من
ابنه ساوجي قمة شامخة في صدق التزام العثمانيين
بالإسلام وبأحكام الشريعة الإسلامية .

فحين تأمر ولده ساوجي مع الأمير اندرونيقوس ابن
الامبراطور البيزنطي يوانيس ، وسار الاثنان على رأس
جيش من البيزنطيين وبعض المخدوعين من الجنود
العثمانيين لمحاربة الجيش العثماني الإسلامي ، كانت
نتيجة المعركة هزيمة المتآمرين ، ووقوع الأمير ساوجي
في الأسر ، فأصر والده السلطان مراد أن يعرض أمره
على علماء الشريعة وقضااتها ، فحكموا عليه بعقوبة الموت
جزاء خروجه على طاعة ولي الأمر ، وجزاء موالاته للكفار
ومشاركته الفعلية الى جانبهم في قتال المسلمين . وحين
أشفق رجال الدولة أن يفجع السلطان مراد بولده
ساوجي ، رجوه ان يعفو عنه ، ويكتفي بنفيه فما كان
من السلطان مراد ، المؤمن ، الملتزم ، الا أن أصر على أن
ينفذ حكم الشريعة في ولده ، وكأنني به وهو يفعل ذلك
كان يستشعر بصدق قول الله عز وجل :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو
إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان
وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك
حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

١٠ وكان من الطبيعي أن يستغل الحاقدون مقتل
ساوجي على ذلك النحو ، لينفتوا حقدهم ضد مراد ،
فيتهمونه بالوحشية ، وتحجر عاطفة الأبوة في قلبه ،
وما دروا أن الالتزام بالاسلام يجعل وشيجة العقيدة
فوق كل وشيجة .

✽ ولعل هذه الأبيات الشعرية التي وردت في كتاب
المؤرخ البريطاني باول وتنك منقولة عن كتاب « اسكندر
نامه » الذي ألفه الأحمدي في عام ١٤٠٠م مؤرخاً فيه
لحياة الأتراك ، تشكل دليلاً آخر على صدق التزام
الأتراك العثمانيين بالاسلام .

تقول أبيات القصيدة التي عنوانها :

سلطاننا ، وكيف نريده أن يكون ؟ . . ؟

- ان سلطاننا هو خادم دين الله .
- انه الرجل الذي يسعى لاجراج الناس من الشرك .
- وينقلهم الى رحمة الاسلام .
- ان سلطاننا هو سيف الله .
- انه حامي المؤمنين ، وملاذ المسلمين .
- وحين يقتل سلطاننا في سبيل الله .
- فلا تظنوا انه مات .
- لأن الشهيد لا يموت .
- بل ينتقل الى جوار الله .
- ليعيش في جنات النعيم .

✦ وكان عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية حريصاً على الالتزام باحكام الشريعة الاسلامية في جميع حروبه التي خاضها ، وفي هذا الصدد يروي المؤرخ أحمد رفيق في الجزء السادس من موسوعته « بيوك تاريخ عمومي » (التاريخ العمومي الكبير) ، أن عثمان أرسل الى جميع أمراء الروم البيزنطيين الذين يحيطون به ، يخبرهم بين ثلاثة أمور ، اما الاسلام ، أو الجزية ، أو فالحرب .

* ولقد بلغ من شدة حرص العثمانيين على التزام
آداب الاسلام في الوفاء بالعهد ، أنهم ظلوا طوال عدة
قرون ، كما يروي المؤرخ اسماعيل حامي دنشمندي ،
في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، يدخلون قلعة
اولوباد بواسطة القوارب ، على الرغم من وجود جسر
يوصل اليها ، وذلك لان أمير القلعة البيزنطي كان قد
اشتراط على عثمان بن أرطغرل حين استسلم للجيش
العثماني ، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم
الى داخل القلعة .

وأجد من واجبي ، بعد أن قدمت الدليل الناصح
على صدق التزام العثمانيين بالاسلام ، أن أشد الانتباه
الى أن مقتضيات الأمانة العلمية ، كما أن مقتضيات
الأخوة الاسلامية ، توجب علينا أن نبرز باعتزاز وفخر ،
وحيثما ، وأينما أمكننا ذلك ، الهوية الاسلامية الملتزمة
للعثمانيين الأتراك ، وأن نلغي من أفكارنا وعقولنا أية
معلومات خاطئة تزعم أن العثمانيين كانوا مجرد قطاع
طرق ، ومغامرين ، وطلاب شهرة وجاء ، وأن نستبدل
هذه المغالطات بالحقيقة الناصعة التي تؤكد أن عثمان
ابن أرطغرل قد أسس دولة تعتر بالاسلام ، ويعز بها

الاسلام ، ويلوذ اليها المسلمون ، وهذا ما يؤكد المؤرخ التركي أحمد رفيق في موسوعته المطبوعة باللغة التركية بأحرفها العربية « بيوك تاريخ عمومي » ، أي « التاريخ العام الكبير » ، حيث يقول ما ترجمته :

« كان عثمان متديناً للغاية ، وكان يعلم أن نشر الاسلام وتعميمه واجب مقدس ، وكان مالكا لفكر سياسي واسع ومتين ، ولم يؤسس عثمان دولته حبا في السلطنة ، وإنما حبا في نشر الاسلام » .

✦ ويعزز هذا الرأي ما أورده المؤرخ التركي قادر مصر أوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » المطبوع عام ١٩٧٩م .

يقول مصر أوغلو :

لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانا عميقا بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله ، لاعلاء كلمة الله ، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف .

✦ ومما يؤكد الهوية الاسلامية للدولة العثمانية ، أن أول عملة عثمانية سككت في زمن أورخان بن عثمان

ابن أرتغرل ، كانت تحمل على أحد وجهيها لفظ الشهادة
« لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

و حين شكل السلطان أورخان في عام ٧٢٩هـ -
١٣٢٨م ، أول جيش نظامي عثماني ، توجه بهذا الجيش
الى حيث يقيم العالم المؤمن الحاج بكتاش ، وطلب
منه أن يدعو لهذا الجيش بالنصر ، فتلقاهم العالم
المؤمن خير لقاء ، ووضع يده على رأس أحد الجنود ،
ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم ، وأن يجعل سيوفهم
حادّة قاطعة ، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في
سبيل الاسلام .

واتخذ أورخان لجيشه الجديد راية من قماش أحمر
في وسطها هلال ، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا
عليه اسم « ذو الفقار » تيمناً بسيف الخليفة الراشد
علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

* وينبغي أن أشير الى أن الدكتور عمر عبد العزيز
عمر يؤكد في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب

الاسلامية ، الذي يدرس في عدد من الجامعات العربية ،
أن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون الأتراك
في المراحل الأولى من تأسيس دولتهم كانت نتيجة عدة
عوامل ، أهمها ، وفي مقدمتها ، الروح الدينية الوثابة
التي كان يتمتع بها العثمانيون .

العثمانيون الأتراك

صدقوا الله في جهادهم في سبيله

تجلى صدق جهاد العثمانيين في سبيل الله في وقت سابق لتأسيس دولتهم ، حين كان أرطغرل بن سليمان والد مؤسس الدولة عثمان بن أرطغرل يضرب في الأرض فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمئة عائلة ، من ويلات الهجمة المغولية بقيادة جنكيز خان ، فاذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء ، فلما اقترب منها فوجي بجيشين يقتتلان ، جيش مسلم ، وجيش بيزنطي ، وكان الجيش الاسلامي على وشك الاندحار المؤكد ، فما كان من أرطغرل الا أن اندفع بكل حماس لنجدة اخوانه المسلمين ، من غير أن يضيع لحظة من الوقت في التعرف على الجهة التي ينتمي اليها الجيش الاسلامي ، ومن غير أن يضيع لحظة من الوقت في التفكير بعواقب الأمر ، ومن غير أن يثنيه قلة عدد محاربي عشيرته ، وقواهم المنهكة .

لقد اندفع اندفاع المسلم المخلص لنجدة اخوانه المسلمين ، رغم كل ما يحمله ذلك الانحياز لجيش يكاد يكون مهزوماً ، من مخاطرة غير مضمونة العاقبة ، لأن شيئاً فوق كل الاعتبارات ، شيئاً تتضائل أمامه المصالح الشخصية ، وتتلأشى في مواجهته طبيعة النفس البشرية التي تنشد فطرتها السلامة والبعد عن المخاطرة ، هو الذي دفعه للانحياز الى اخوانه المسلمين .

ذلكم هو الاسلام وحب الجهاد في سبيل الله .

ويؤكد هذه الحقيقة الاستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأترك » حيث يقول :

أصبحت اشارة عثمان المنفس الوحيد للحماس الديني في الاسلام ، فجاءها كل راغب في الجهاد ، واجتذبت اليها أعداداً من المتحمسين لنصرة الدين .

كما يؤكد هذه الحقيقة المستشرق الالماني كارل بروكلمان في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، حيث يقول : ان المئات ممن كان يطلق عليهم اسم « المندفعون » (المجاهدون) ، كانوا يقبضون الى الترخوم المواجهة للبيزنطيين ، للانضمام الى عثمان حياً في الجهاد في سبيل الله .

✽ ويعبر السلطان المجاهد محمد الفاتح ، أنعم به
من فاتح ، أروع تعبير عن صدق اندفاع العثمانيين في
دروب الجهاد في سبيل الله عز وجل ، في هذا الحوار
الذي جرى أثناء حصاره لمدينة طرابزون في عام ٨٦٥هـ -
١٤٦٢م ، بينه وبين سارة خاتون ، والدة عدوه اللدود
الأمير حسن الطويل الذي تحالف مع بابا روما ضد
العثمانيين .

قالت العجوز ، كما يروي المؤرخ التركي عاشق
باشا زاده في كتابه « تاريخ عاشق باشا زاده » :
يا بني ، لماذا تلقي بنفسك وبجيشك الى المخاطر
من أجل فتح مدينة (تقصد طرابزون) تستطيع أن تبني
مئة مدينة أجمل منها وأكبر ؟

فاجابها السلطان المؤمن الملتزم :

يا اماء اننا لا نلقي بأنفسنا الى المخاطر من أجل
مدينة ، وانما في سبيل الله عز وجل ، حتى اذا لقيناه
يوم الحساب ، قدمنا اليه فخورين ، لا خجلين ، وبأيدينا
سيوفنا التي حاربنا بها في سبيله .

يا أماء ، ان هذه السيوف التي نحملها ليست
للزينة والتباهي ، وانما هي لنقاتل بها في سبيل الله .
يا أماء ، ان هذا العناء الذي نلاقيه كله في سبيل
الله ، وهل تظنين أننا نكون أهلاً لنسمى مجاهدين في
سبيل الله اذا لم نتحمل هذا العناء .

✽ ويربط الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه
« العرب والترك » ، بين شجاعة الجندي التركي ، وبين
صدق حبه للجهاد في سبيل الله فيقول :

وما الشجاعة التي اشتهر بها الجندي التركي ،
الا نتيجة لتعصب الشعب التركي للاسلام ، واستناداً
الى انه كان يؤمن ايماناً صادقاً بأن الذين يقتلون في
سبيل الله ، هم احياء عند ربهم يرزقون .

✽ وحين نقرأ تاريخ بني عثمان بعيون اسلامية
لا تنطلي عليها الافتراءات التي أطلقها الحاقدون ليحجبوا
المواقف التي سجلها العثمانيون في ميادين الجهاد في
سبيل الله ، تطالعنا صور رائعة تجسد أروع تجسيد
معجزة الاسلام في صنع البطولات والابطال .

* تطالعنا صورة السلطان مراد بن أورخان بن عثمان ، وهو يناجي ربه في الليلة التي سبقت اندلاع معركة «قوصوه» الحاسمة التي أعز الله بها جنده ، وهزم جيوش الحلف الصليبي بقيادة ملك الصرب لازار (٧٩١هـ - ١٣٨٩م) ، ففي تلك الليلة التي اشتد ظلامها ، وثار غبارها ، وبلغت القلوب فيها الحناجر ، كان السلطان المجاهد مراد بن أورخان يرفع يديه الى السماء يناجي ربه قائلا :

الهي ، ومولاي ، تقبل دعائي وتضرعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثاً يطفئ من حولنا غبار العواصف ، واغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات ، حتى نتمكن من ابصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل اعزاز دينك العزيز .

الهي ، ومولاي ، ان الملك والقوة لك ، تمنحها لمن تشاء من عبادك ، وأنا عبدك العاجز الفقير ، تعلم سري ، وجهري ، وأقسم بعزتك وجلالك انني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية ، ولكنني أبتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك .

الهي ، ومولاي ، أسالك بجاه وجهك الكريم ،
أن تجعلني فداء للمسلمين جميعاً ، ولا تجعلني سبباً
في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم .
الهي ، ومولاي ، ان كان في استشهادي نجاة لجند
المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك ، لأنعم بجوارك ،
ونعم الجوار جوارك .

الهي ، ومولاي ، لقد شرفتنني بأن هديتنني الى طريق
الجهاد في سبيلك ، فزدني شرفاً بالموت في سبيلك .
وقد روى المؤرخ التركي خوجا سعد الدين في كتابه
« تاريخ التواريخ » ، أن السلطان مراد أمضى الليل
بطوله وهو يدعو بهذا الدعاء .

ولقد صدق مراد ربه ، فصدقته وعده ، فنصر
جنده ، واختاره شهيداً في سبيله في تلك المعركة .
* وتطالعنا صورة السلطان المجاهد محمد الفاتح ،
وقد امتطى صهوة حصانه ، يحف به العلماء المجاهدون
آق شمس الدين ، ومولا خسروي ، ومولا قوراني ، ثم
يتقدم بحصانه نحو أسوار القسطنطينية ، وقد ارتفع
صوته بعنفوان :

يا ابنائي ، ها أنذا مستعد للموت في سبيل الله ،
فمن رغب في الشهادة فليلحق بي .

✽ وتطالعنا صورة الجندي المجاهد البطل حسن
أولو بادلي ، وهو يخترق على رأس ثلاثين من جنده
المسلمين ثغرة في سور القسطنطينية ، فتنهمر عليه
وعليهم قدور الزيت المغلي ، وتتلقفه مئات السيوف
والرماح ، فلا يأبه لكل ذلك العناء ، ويصر على فتح
باب قريب من الثغرة ، ليندفع منه المسلمون الى داخل
القسطنطينية بينما أرواح أولو بادلي ، وإخوانه المجاهدين
تصعد الى رحاب العلي القدير .

✽ ونستطيع أن نلمس صدق حماس العثمانيين في
ميادين الجهاد في سبيل الله من خلال مطالعتنا للرسالة
التي أرسلها السلطان محمد الفاتح الى سلطان دولة
المماليك الشراكسة في مصر السلطان أيتال شاه ، ففيها
نطالع هذه العبارات :

ان من أحسن سنن أسلافنا ، أنهم مجاهدون في
سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، ونحن على هذه السنة
قائمون ، وعلى تلك الأمانة دائمون ، متمثلين بقوله تعالى

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ، و متمسكين بقوله
عليه السلام ، « من اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله حرَّمه
الله على النار » ولهذا فقد هممنا هذا العام ، معتصمين
بحبل الله ، ذي الجلال والاكرام ، ومستمسكين بفضل
الملك العلام ، الى أداء فرض الغزاة (من الغزو) الذي فرضه
علينا الاسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين
يلونكم من الكفار » ، و جهزنا عساكر الغزاة المجاهدين
من البر والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً .

العثمانيون الأتراك

دفعوا ثمنًا باهظًا بسبب موقفهم الصلب
في وجه المطامع الصهيونية في فلسطين المسلمة

سجل العثمانيون الأتراك ، حتى وهم في أخرج
الظروف وأصعبها ، موقفًا شامخًا ، دفاعًا عن فلسطين
المسلمة ، ينبغي أن يُسجّل للعثمانيين المسلمين بما
الذهب ، بل ينبغي أن يكون أنشودة فخار واعتزاز
على لسان كل عربي بشكل عام ، وفلسطيني بشكل
خاص ، ذلك الموقف الذي تمثل في الموقف الصلب
الذي وقفه العثمانيون المسلمون تجاه قضية فلسطين ،
ذلك الموقف الذي وقفه السلطان المُفتَرى عليه عبد
الحميد الثاني .

ففي عام ١٩٠١م قام ثيودور هيرتزل زعيم الحركة
الصهيونية العالمية ، يرافقه إيمانويل قره صو زعيم
الاقلية اليهودية التركية ، والحاخام ليفي موشيه حاخام
اليهود فيها ، بزيارة كانت الأولى من نوعها للسلطان
عبد الحميد ، لاقتناعه بالسماح لليهود بالهجرة الى

فلسطين ، فما كان من السلطان عبد الحميد الا أن
رفض رفضاً قاطعاً مجرد مناقشة الوفد اليهودي في
ذلك الأمر .

لكن اليهود لم يقطعوا الأمل ، وزين لهم شيطانهم
أن الضائقة المالية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية
قد تكون المدخل الذي يستطيعون من خلاله الوصول
الى هدفهم في انتزاع موافقة السلطان عبد الحميد على
السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، فعادوا يلتمسون
السماح لوقدم بمقابلة السلطان عبد الحميد ، فلما
تمت المقابلة عرض هيرتزل على الخليفة رشوة مالية
ضخمة تحت ستار تقديم العون للدولة العثمانية ،
مقابل السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، وما كاد
هيرتزل ينهي كلامه ، حتى كان السلطان عبد الحميد
يقذف في وجه هيرتزل ورفيقه كلمات غاضبة كأنها
هي حمم بركان نائر .

قال السلطان لهيرتزل :

لو كنت أعلم أنك جئت اليوم تطلب مني ما رفضت
اجابتك اليه من قبل ، لما سمحت لك بالدخول علي ،

واعلم يا هيرتزل أن فلسطين جزء من أرض الاسلام ،
وأرض الاسلام لا تباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا
على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ، ولن نفرط بشبر
منها قبل أن نبذل كل دمائنا دفاعاً عنها .

وخرج ثيودور هيرتزل ورفيقاه يجبران أذيال
الخيبة ترسم على وجوههم ، ويجتثرون غصص الحقد
تأكل قلوبهم ، وأقبلوا على قومهم وصنائعهم يستنفرونهم
ويستثيرون أحقادهم ، للانتقام من السلطان المسلم الذي
استعصى على أغراضهم .

وأفرغ ثيودور هيرتزل كل ما في قلبه من حقد
ضد السلطان عبد الحميد ، وضد الدولة العثمانية في
تقرير سري رفعه الى لجنة الأعمال الصهيونية ، عن
نتيجة مقابلته للسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٢ م ،
وقد نشر هذا التقرير بعد عشرين عاماً في صحيفة
فلسطين الصادرة في القدس في ١٩٢١/٨/٢٤ .

واقطف هذه العبارات بحرفيتها من تقرير
هيرتزل :

« أقرر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية ، أما عن طريق الزّج بها في حروب تنهزم فيها ، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية ، أو بالطريقين معا في آن واحد » .

وكانت دولة الخلافة العثمانية في تلك الفترة تمر بمرحلة ضعف أغرت الحاقدين من صليبيين ويهود باحياء حلمهم القديم بالقضاء على الاسلام في تركيا ، ولقد لعبت الدعاية اليهودية الماكرة عبر الصحافة التي كانوا يسيطرون عليها في أوروبا دوراً حاقداً ومؤثراً في تهيئة الاجواء لتنفيذ مخطط ماكر رهيب للقضاء على الخلافة الاسلامية باعتبارها الرمز الذي يلتقى حوله المسلمون جميعاً .

وانحصر دور الدعاية الاعلامية اليهودية في عدة مجالات نفصلها كما يلي :

أولاً : تشويه صورة الأتراك المسلمين بإظهارهم بمظهر المتوحشين سفاكي الدماء ، المنغمسين في الفساد والانحلال ، وذلك بقصد اذكاء الحقد الصليبي الأوربي ضد الأتراك المسلمين .

ثانياً : تحريك غرائز الطمع الاستعماري الصليبي
وإغراء الأوروبيين بسهولة الانقضاض على الدولة
العثمانية ، وإذكاء الأحقاد الصليبية ضد الاسلام الذي
كان العثمانيون يرفعون رايته فقامت الصحافة الصهيونية
بنبش موضوع فتنة عام ١٨٦٠م الشهيرة التي حدثت
بين الدروز والنصارى في سورية ولبنان ، وحرصت
الدعاية الاعلامية اليهودية على القاء تبعة مسؤولية المذابح
التي تعرض لها النصارى آنذاك على الدولة العثمانية ،
وتبنت وسائل الدعاية اليهودية بخبت ومكر المتأداة
بضرورة تدخل الدول الأوروبية النصرانية بحجة حماية
الرعايا النصارى في سوريا ولبنان من مذابح أخرى قد
يقوم بها الأتراك العثمانيون وقد نجحت الصهيونية في
ذلك أيما نجاح ، فقد رضخت دولة الخلافة العثمانية
لطلبات الدول النصرانية الأوروبية ، بمنحها امتيازات
في ديار العرب والاسلام تحت ستار تأمين الحماية
لنصارى .

وقامت الصحافة الصهيونية كذلك بنبش موضوع
الفتنة التي أثارها البلغاريون عندما قاموا بالثورة ضد

الدولة العثمانية وارتكبوا أثناء ثورتهم مذابح بشعة
ضد الأتراك المسلمين ، فاضطرت الدولة العثمانية الى
اخماد الثورة بالقوة ، ولقد استغلت الدعاية الاعلامية
اليهودية هذا الموقف لتشويه الحقائق واطهار الأتراك
المسلمين بمظهر المعتدين الذين يحبون سفك دماء
النصارى بدون رحمة ، وظلت الدعاية الاعلامية اليهودية
تنفث الحقد في قلوب النصارى في جميع أوربا وتدعوهم
الى النار لآخوانهم النصارى البلغار ، وكان لتلك الحملة
الدعائية اليهودية أكبر الأثر في اذكاء الحقد الصليبي
في دول أوربا كلها ضد الاسلام والمسلمين مما سيظهر
آثره فيما بعد عندما تندلع الحرب العالمية الأولى .

ثالثاً : ولعل أخطر دور لعبته الدعاية الاعلامية
اليهودية من خلال الصحف التي كانت تسيطر عليها في
أوربا وفي تركيا نفسها ، ومن خلال الجمعيات الماسونية
التي فترختها الصهيونية ، هو ذلك النشاط الذي
لعب دوراً كبيراً في تنفيذ مؤامرة الردة الكافرة في تركيا ،
وأدى الى ابطال مفعول الخلافة الاسلامية ، والقضاء على
الكيان الاسلامي لتركيا .

وقد تجلى هذا النشاط الصهيوني في المجال
التالية :

أولا : تشويه سمعة رجال الدولة العثمانية
وتصويرهم في صورة الحكام المستبدين المستهترين
بمصالح شعوبهم المنغمسين في الفساد والانحلال ، ولسنا
ننكر أن بعض رجال الدولة العثمانية وخاصة في أواخر
أيامها كانوا فاسدين ، إلا أن اليهود عموما هجمتهم
لتشمل جميع رجال الدولة العثمانية الذين لم تستطع
أحاييل اليهود من التأثير عليهم ، ولقد كان السلطان
عبد الحميد أحد أبرز رجال الدولة العثمانية الذين
نالهم الأذى الشديد من الدعاية اليهودية التي شوهت
صورته وسمعته وأطلقت عليه ظلماً وبهتاناً لقب
«السلطان الأحمر» ، لترسيخ أكذوبتها الكبرى التي
لفقتها ضده حين لفتت عنه قصصاً كاذبة عن عمليات
اغتيال مزعومة أمر بها ضد رجال المعارضة ، ولقد
كان هدف هذه الحملة الاعلامية الشرسة ضد رجال
الدولة العثمانية هو التمهيد وتهيئة الرأي العام التركي
لتقبل فكرة التخلص من رجال الدولة العثمانية ليسهل

على اليهود وحلفائهم النصارى بعدئذ الانتقال الى الخطوة التالية وهي القضاء على كيان الدولة العثمانية ذاته .

ثانياً : تشويه صورة دولة الخلافة الاسلامية كدولة ، وذلك باطلاق وصف «الرجل المريض» عليها ، وهو وصف من ابتكار اليهود ، وليس صعباً أن ندرك أن هدف وسائل الاعلام اليهودية آنذاك من تصوير الدولة العثمانية بصورة الرجل المريض انما هو لتهيئة وتهيئة الرأي العام التركي والعالمي لتقبل فكرة استبدال هذا الكيان المريض الذي هو دولة الخلافة بكيان قوي متطور وعصري يكون صورة طبق الأصل عن أية دولة أوربية .

ثالثاً : بينما كانت الدعاية الاعلامية اليهودية تشوه صورة الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تروج لفكرة الدولة التركية العلمانية الحديثة المرتبطة بأوروبا وذلك كبديل للدولة العثمانية ، ولكنها لم تكن تجرؤ على الجهر بذلك بصراحة ، وانما كانت تدس هذه الفكرة

دسنا من خلال ما تضيفيه من حسنات على النظم الحاكمة
الأوربية وتصويرها بأنها بلغت قمة الكمال .

وحيث كانت الدعاية اليهودية الاعلامية تشوه صورة
رجال الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تضيف
هالات زائفة من صفات البطولة والرجولة والاستقامة على
الشخصيات التركية التي كانت الصهيونية ورببتها
الماسونية ، بالتحالف مع الصليبية ، تعدها لاستلام
مقاليد الأمور في تركيا ، في حالة نجاح الخطة الخبيثة
للقضاء على كيان تركيا الاسلامي .

ومن تلك الشخصيات مدحت باشا ، اليهودي الذي
ادعى الاسلام نفاقاً والذي صورته الدعاية الاعلامية
اليهودية بصورة المكافح من أجل الشعب التركي ،
وأطلقت عليه أوصافاً براقية مثل « أبو الأحرار » و « أبو
الدستور » ، وحين نفاه السلطان عبد الحميد الى الطائف
بعد أن انفضحت علاقته بمخططات الصهيونية والماسونية
المتآمرة ضد دولة الخلافة ، أقامت الدعاية الاعلامية
اليهودية الدنيا ولم تقعدوا احتجاجاً ضد نفيه ، واستغلت
الصهيونية هذه الحادثة لتكثيف هجمتها ضد السلطان

عبد الحميد باعتباره رمزا للدولة العثمانية وعنوانا
لوحدة المسلمين .

على أن النجاح الكبير الذي حققته الدعاية الاعلامية
اليهودية كان من نصيب مصطفى كمال أتاتورك الذي
كان اليد الآتمة التي حقق الكفر بواسطتها حلمه في
القضاء على الكيان الاسلامي لتركيا وابطال مفعول الخلافة
الاسلامية ، فقد سخرت الدعاية الاعلامية اليهودية كل
مكرها ، وخبثها ، وكذبها ، لتصوير أتاتورك بصورة
المنقذ المنتظر لتركيا ، وتركزت حملتها الدعائية لمصلحة
أتاتورك أثناء فترة الحرب ضد الحلفاء في أواخر الحرب
العالمية الأولى ، وانتهزت الدعاية اليهودية ما أصاب
الأتراك من هزيمة لترفع عقيرتها بالمناداة بأن الوطن
يحتاج الى زعامة جديدة قادرة على انقاذه ، وكانت
طبعاً تضرب بذلك عصافورين بحجر واحد ، تلمز من
قناة رجالات الدولة العثمانية من جهة ، وتقدم كمال
أتاتورك على أنه هو المنقذ المنتظر من جهة أخرى ، ولقد
تم حبك الأمر بصورة تسمح باظهار أتاتورك بأنه فعلاً
المنقذ ، ذلك أن الحلفاء تظاهروا في أكثر من موقعة
بالتراجع والانهزام أمام أتاتورك ، وقد انكشف هذا

السر بعدئذ ، فكانوا بذلك يفتحون المجال أمام الدعاية اليهودية لاضفاء صفات البطولة والاقدام على أتاتورك .
ولقد نجحت مع الأسف الشديد حملة الدعاية اليهودية في اقناع الأتراك ببطولة أتاتورك وزعامته ، وساعدها في ذلك أن أتاتورك في بداية الأمر تستر بالاسلام وطلق يخطب خطبة الجمعة في مساجد المدن والقرى ، وياخذ الصور الفوتوغرافية بين العلماء ، وكانت الصحافة اليهودية تبرز هذه النشاطات لتقنع الأتراك بتقبل زعامة أتاتورك كبديل للخليفة ورجالاته الذين كانت تصورههم بصورة مشوهة كمستبدين وفاسدين ومنحلين أخلاقياً .

رابعاً : لم يقتصر الدور الذي لعبته الدعاية الاعلامية اليهودية في مؤامرة القضاء على الكيان الاسلامي لتركيا على تشويه صورة الدولة ورجالاتها ، وابراز قيادات بديلة من شخصيات يهودية الاصل أو عميلة لليهود ، ولكن هذا الدور توسع ليفطى معظم اجزاء الدولة العثمانية ، وكان ابرز ميدان له وطننا العربي حيث أخذت الدعاية الاعلامية اليهودية على عاتقها الترويج للأفكار القومية التي اوعزت الصليبية لبعض نصارى

العرب بالمناداة بها ، ومن عجب أن تفتح الدعاية اليهودية الاعلامية من خلال صحفها ومحافلها الماسونية المجال لسندنة القومية العربية للترويج لهذه الفكرة لتنطلي على كثير من العرب الذين انخدعوا بها ، وظنّوا أنهم سيجدون فيها خلاصاً لهم من ظلم كانوا يرزحون تحته بسبب فساد ادارة الدولة ، كان اليهود أنفسهم سببه من خلال عملائهم رجالات جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على مقاليد الامور في الدولة العثمانية من عام ١٩٠٨ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وهكذا نجد أن الدعاية الاعلامية اليهودية حققت نجاحاً كبيراً حين نجحت في الترويج لفكرة القومية العربية التي أصبحت بعد قليل اسفينا مزقت به اليهودية والصليبية وحدة الجسم الاسلامي مما مهد السبيل امام أعداء الاسلام لتنفيذ مؤامرتهم لالغاء الخلافة الاسلامية .

خامساً : وعندما ضرب أتاتورك لعنه الله ضربته الفاشية فابطل مفعول الخلافة الاسلامية ، والفى الكيان الاسلامي لتركيا ، واعلنها جمهورية علمانية لا دينية ،

كان للاعلام اليهودي دور وأي دور في الترويج لتلك
الردة الكافرة ومبادئها ، مثلما كان له دور وأي دور
في تشجيع أناتورك على البطش بأية معارضة شعبية ،
وكانت تزيين له أن ما يقوم به من مذابح وحشية ضد
المسلمين ليست سوى معارك بطولية ، كما أنها كانت
متبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي ، والمناداة
بالحرية الفاجرة للمرأة التركية ، والترويج لفنون
الانحلال الخلقي ، معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة
والزنا ليست الا مظاهر للتمدن والتحضر .



تلك هي بعض ملامح الدور الخبيث الذي لعبته
الدعاية الاعلامية اليهودية بشكل خاص والصليبية
بشكل عام في التهيئة لتنفيذ مؤامرة الردة الكافرة ضد
الخلافة الاسلامية وضد الكيان الاسلامي لتركيا والتي
آتت اكملها الخبيث في عام ١٩٢٤ ميلادية ، مكرسة
افدح نكبة تصيب أمة الاسلام في العصور المتأخرة ،
وكان من نتائجها تفتيت وحدة المسلمين ، وابطال مفعول
الخلافة الاسلامية التي كانت الدولة العثمانية رمزاً لها.

ولعل من أفدح نتائجها أيضاً أن الدولة البلشفية الشيوعية في روسيا خلا لها الميدان في الجمهوريات الإسلامية الاسيوية فجاست خلالها تقتيلاً واضطهاداً وقضاء على كيائها الاسلامي ، مكمله بذلك ما بدأه قياصرة روسيا الصليبيون ، وسجل التاريخ آنذاك انهيار العديد من الجمهوريات الإسلامية لتصبح مجرد ولايات تابعة للاستعمار البلشفي الشيوعي الجديد .

على أن أخطار النتائج التي أفرزتها مؤامرة الردة التي أطاحت بالكيان السياسي للدولة العثمانية كانت في ازاحة عقبة كؤود كانت تقف بشموخ في وجه المخطط الصهيوني لاغتصاب فلسطين المسلمة ، وبذلك تحقق حلم هيرتزل ، ووجدت الصهيونية الفرصة المواتية لتسعيد نشاطها في التهيئة لنكبة ضياع فلسطين .

ولقد كان من سوء حظ فلسطين ، وأهل فلسطين ، وقضية فلسطين ، أن ينجح اليهود في تحقيق حلم هيرتزل ، بالقضاء على الدولة العثمانية المسلمة التي كانت تقف سداً منيعاً في وجه المخططات الصهيونية للاجهاز على فلسطين ، والتي كانت شوكة في حلق كل يهودي .

فان من حق السلطان عبد الحميد ، ومن حق
 العثمانيين الأتراك ، على كل عربي وفلسطيني ، أن
 يسجل لهم هذا الموقف الشامخ دفاعاً عن فلسطين ،
 وأن يراجع كل عربي ومسلم ، المعلومات الخاطئة التي
 جهدت القوى الحاقدة في تلفيقها ضد السلطان عبد
 الحميد وضد العثمانيين الأتراك ، فما كان السلطان عبد
 الحميد طاغية ، وما كان ظالماً ، ولا مستبدّاً ، ولم يتمرغ
 في أوحال الملذات ، ولا تلطخت يدها بدماء الأبرياء ، كما
 تصوره أحقاد الحاقدين ، مما لا تزال أجيالنا حتى يومنا
 هذا تتلقاه مع الأسف الشديد على مقاعد الدراسة في
 أكثر أنحاء وطننا العربي .

ولئن كان الأسى يشتد ويتعظم في النفس المسلمة ،
 وهي ترى الكثير من الألسن والأيدي المسلمة مستمرة في
 ترديد الافتراءات الظالمة التي ألصقت بالسلطان عبد
 الحميد ، فان من مقتضيات الأمانة العلمية أن أشير الى
 ان بعض الأقلام أنصفت السلطان عبد الحميد حتى وهي
 تكيل له الاتهامات الباطلة ، كتلك الشهادة التي سجلها

المحامي سليم صويص في كتابه « ألتاتورك منقذ تركيا ،
وباني نهضتها الحديثة » وهو كتاب كرس أصلاً لتمجيد
ألتاتورك . يقول الأستاذ صويص وهو عربي نصراني
أردني ، وهو يعقد مقارنة بين السلطان عبد الحميد ،
ورجالات جمعية الاتحاد والترقي : « وهكذا عادت
جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم ثانية بشكيمة أقوى ،
وبسيطرة أكبر على مقاليد الأمور ، فعزلت السلطان
عبد الحميد وعينت أخاه محمد رشاد مكانه ، والغريب
أن يصبح تعليق المشانق في عهد حكم جمعية الاتحاد
والترقي أمراً سائغاً وشائعاً ، في حين أن السلطان عبد
الحميد ، بكل ما عرف عنه من قسوة وبطش كان يتورع
عن شنق المسلم » . ويؤثر نفيه من البلاد على اعدائه » .

العثمانيون الأتراك

كان انتماءؤهم الاسلامي فوق أي انتماء

عرقي ، أو قومي ، أو عنصري

شهدت العقود الأولى للدولة العثمانية دخول أعداد كبيرة من البيزنطيين والأرناؤوط والأرمن في الاسلام ، ولقد حرص العثمانيون على فتح قلوبهم على وسعها لهؤلاء المسلمين ، وفتحوا المجال أمامهم لمشاركتهم أعباء الجهاد وإدارة الدولة بدون أية حدود ، ولم يكن لانتماءاتهم العرقية أو القومية السابقة أي تأثير يمنع من ارتقائهم في مناصب الدولة العسكرية والمدنية ، وأذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ، الأمير خوسيه ميخائيل الذي أسلم في زمن عثمان ابن أرطغرل وأصبح من قادة الدولة المرموقين ، ثم تبعه أبناؤه وأحفاده على نفس الطريق ، وأذكر القائد البيزنطي أفريتيوس حاكم مدينة بورصة الذي عهد إليه السلطان أورخان بقيادة أحد جيوشه ، ثم خلفه ابنه علي بن أفريتيوس الذي أسند إليه السلطان الفاتح قيادة أحد جيوشه .

وأذكر من هؤلاء أيضاً الأمير أحمد ابن ملك البوسنة
استيفان ، ومنهم أيضاً محمود باشا الذي وصل الى
منصب الصدر الأعظم في زمن السلطان الفاتح ، والذي
بلغ من شدة تدينه وحسن اسلامه أن الناس كانوا
يلقبونه بالولي .

ولعل في هذه الاحصائية التي سأوردها الآن كما
أوردها اسماعيل حامي دنشمندي في كتابه « موسوعة
التاريخ العثماني » ، الدليل الذي لا حاجة بعده لأي
دليل على صدق العثمانيين في رفضهم الوقوع في متاهات
العصبية العرقية أو القومية ، فقد بلغ عدد الذين تولوا
منصب الصدر الأعظم ، أي رئاسة الوزارة ، مئتين
واثنين وتسعين شخصاً ، وتوزعوا حسب انتماءاتهم
القومية على النحو التالي :

من أصل تركي ١٣٢ ، ومن أصل أرناؤوطي (سكان
البانيا) ٤٩ ، ومن أصل بيزنطي ٢٣ ، ومن أصل سلافي
٦ ، ومن أصل يوغسلافي (بوشناق) ١٣ ، ومن أصل
شركسي ١٤ ، ومن أصل شيشماني ١ ، ومن أصل عربي
٤ ، ومن أصل أرمني ٣ ، ومن أصل روسي ١ ، ومن
أصل يهودي ١ ، وينتمي البقية الى قوميات مجهولة غير
التركية .

وكان أول وزير أعظم من أصل غير تركي قد جرى تعيينه في عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م ، حين عين السلطان محمد الفاتح محمود باشا البيزنطي وزيراً أعظماً ، أي رئيساً للوزراء ، وكان محمود باشا من النصاري الذين حسنوا إسلامهم ، بل لقد بلغ من شدة تدينه وتقواه أن الناس كانوا يطلقون عليه لقب «الولي» .

واستمر محمود باشا في تحمل مسؤولية رئاسة الوزراء أربعة عشر عاماً متتالية ، إلى أن نجح محمد باشا ، البيزنطي الأصل ، في الإيقاع بين السلطان الفاتح وبين محمود باشا في عام ٨٧١هـ - ١٤٦٦م ، فعزله وعين محمد باشا مكانه ، لكن السلطان لم يلبث أن اكتشف حقيقة هذا المنافق فعزله في عام ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م ، وأعاد لمحمود باشا اعتباره فعينه قائداً عاماً للأسطول العثماني في بحر إيجه ، وعين اسحق باشا وهو بيزنطي الأصل أيضاً وزيراً أعظماً ، ثم عاد في عام ٨٧٧هـ - ١٤٢٧م ، فعين محمود باشا وزيراً أعظماً .

وينبغي أن نسارع فنشير إلى أن السلطان الفاتح لم يعزل محمد باشا ، ثم يأمر بإعدامه فيما بعد لكونه بيزنطي الأصل ، كما تزعم المراجع الحاقدة ، إذ لو صح

هذا الزعم ، فكيف نفسر اصرار السلطان على تعيين اسحق باشا وهو بيزنطي الأصل أيضاً خلفاً له .

ان السلطان الفاتح لم يعزل محمد باشا ، ثم يأمر باعدامه ، الا بعد أن ثبت له بالدليل القاطع ، والبينة الناصعة ، أن محمد باشا لم يكن صادق الايمان ، بل كان منافقاً ، وقد انكشف نفاقه وعداؤه للاسلام ، وحقده على المسلمين ، حين بعث به السلطان محمد الفاتح على رأس جيش لاختاد عصيان أعلنه بعض أمراء سلطنة قرمان في مدينة لارنדה ، وحين أدرك الأمراء المتمردون أن قواتهم لن تصمد أمام الجيش العثماني ، خاصة وأن أهالي مدينة لارنדה كانوا يتعاطفون مع السلطان الفاتح ، فروا من المدينة ، فأعلن سكانها ولائهم للسلطان الفاتح ، ولكن محمد باشا أصر على قتلهم جميعاً من غير استثناء ، بل عمد الى قتل العديد من ضباطه وجنوده الذين أنكروا عليه الاقدام على قتل الآلاف من المسلمين سكان المدينة ، واقدامه على احراق المساجد فيها .

ولم تلبث انباء المجزرة أن وصلت الى مسامع السلطان الفاتح ، فاستشاط غضباً ، وبلغ به الغضب

مداه ، حين نقل اليه بعض ضباط الجيش أنهم سمعوا
محمد باشا يقول بعد أن ارتكب تلك المجزرة :

الآن أشعر بالراحة ، بعد أن انتقمتم للقسطنطينية .
وقد نقل الواقعة المؤرخ التركي كمال باشا زاده
في كتابه « تاريخ كمال باشا زاده » .

وكان من الطبيعي أن يعزل السلطان الفاتح ذلك
المنافق محمد باشا عن منصب الصدارة العظمى ، ثم
يأمر باعدامه ، جزاء ما اقترفت يده الأثمتان من مجازر
ضد المسلمين .

ولقد وجد الحاقدون في حادثة عزل محمد باشا
واعدامه ثغرة يفتنون من خلالها حقدهم الأسود ضد
الأتراك العثمانيين ، فانبثرت السننهم ، وأقلامهم ، تنهم
العثمانيين بالتعصب العنصري والقومي ، وتغاضى هؤلاء
الحاقدون عن اقدام السلطان الفاتح على تعيين اسحق
باشا ، وهو بيزنطي الاصل ، خلفاً لمحمد باشا .

ولقد كان بإمكان السلطان الفاتح ، بعد أن انكشف
تفاق محمد باشا ، أن يتخذ من خيانة ذلك المنافق مبرراً
للبطش بكل الذين يتحدرون من أصل بيزنطي ، أو على

الأقل لاقصائهم عن المراكز الحساسة التي كانوا يشغلونها في الدولة العثمانية ، ولكنه لم يفعل ذلك بل أصر على تعيين رجل بيزنطي الأصل خلفاً لمحمد باشا ، لأنه كان يؤمن إيماناً صادقاً بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى . وأنه إذا كان التسامح الذي أبداه العثمانيون الأتراك مع العناصر البيزنطية الأصل وغيرها من القوميات الأخرى ، قد أدى الى تسرب بعض المنافقين تحت ستار التظاهر بالاسلام ، من أمثال محمد باشا ، الى بعض مراكز الدولة الحساسة ، فإن هذا التسامح قد أفرز شخصيات كثيرة حسن اسلامها ، وقام الدليل على حسن بلائها في سبيل الله ، من أمثال خوسية ميخائيل ، وافرينوس ، ومحمود باشا ، وغيرهم .

ولئن ثبت فيما بعد ، أن هذا التسامح قد أدى الى تسرب عدد من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ، ويظنون الحق عليه ، الى مراكز الدولة العليا ، مما عاد على المدى البعيد بالضرر الشديد على الدولة العثمانية ، بل كان أحد الأسباب الرئيسية في انهيارها والقضاء عليها ، فإن هذا التسامح ينبغي أن يسجل كنقطة ايجابية لصالح العثمانيين الأتراك المسلمين ، تؤكد صدق التزامهم

بالاسلام ، الذي جعل رابطة الدين ، ووشيجة العقيدة ،
فوق أية روابط عنصرية أو عرقية أو قومية .

ولعل من المفيد ، أن أورد شهادة المؤرخ النصراني
جورج كيرك الذي كان أستاذاً للتاريخ في الجامعة
الأميركية في بيروت ، إذ يقول في ص ٩ من كتابه « تاريخ
الشرق الأوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر » ،
المطبوع بالعربية في عام ١٩٥٧ بالقاهرة .

لقد كان عنصر الأتراك أقلية في عاهليتهم الشاسعة،
ولم يحاولوا استعمار ما فتحوه من الولايات استعماراً
عاماً ، كما أن الدولة لم تحصر قوام العاهلية في العنصر
التركي الضيق النطاق ، بل كان الاعتبار الأول فيها
أنها عاهلية شاملة ، فكان لكل رجل مهما كان عنصره
أو مولده ، مجال لتقلد مناصب الدولة وبلوغ أعلى
الدرجات فيها .

وإذا كان لا بد من توجيه اللوم بسبب ما نتج عن
هذا التسامح ، فلا ينبغي أن يوجه اللوم الى العثمانيين
المسلمين الذين التزموا بما يفرضه عليهم اسلامهم ،
فترفعوا عن العصبية القومية والعنصرية والعرقية .

امتثالاً لهدى نبيهم صلى الله عليه وسلم القائل : « دعوها فانها منتنة » ، وقد كان بإمكانهم ، كمنتصرين ، أن يظهروا تعصباً لانتمائهم القومي كأتراك ، لكنهم آثروا الالتزام بما يفرضه عليهم الاسلام من معاملة جميع المسلمين على قدم المساواة ، وتوفير الفرص أمامهم من غير استثناء ، ليعطوا بذلك الدليل الساطع على أنهم ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى عصبية الانتماء القومي ، وارتفعوا بها الى رحاب الانتماء العقائدي الشامخ .

ان اللوم ينبغي أن يوجه الى أولئك المنافقين ، الذين فتح الاسلام ، والمسلمون صدورهم على رحبها لاحتضانهم ، فأبوا الا أن يكونوا من الذين قال فيهم رب العزة في كتابه العزيز :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » سورة البقرة ٨ - ١٠ .

واني لأحسب أن السينة الكثيرين تكاد تنطلق بهذا السؤال .

إذا كان العثمانيون قد ارتفعوا بالتزامهم الاسلامي
فوق العصبية القومية والعرقية ، فلماذا انتهجوا سياسة
التتريك التي حاولوا من خلالها اجبار رعايا الدولة
الذين لا ينتمون الى القومية التركية ، بما في ذلك
المسلمين ، عربا وغير عرب ، على خلع انتماءاتهم القومية
لينصهروا في بوتقة القومية التركية ؟

اسمعوها مني صريحة داوية ، ان العثمانيين المسلمين
برآء براءة تامة من هذه التهمة ، ولا يحسبن احد أنني
أنفي وقوع هذا الأمر ، بل انني أؤكد بكل شدة ،
ولكنني أؤكد في ذات الوقت أن الذين تولوا كبر هذه
الجريمة المنكرة لم يكونوا عثمانيين ، ولم يكونوا مسلمين ،
بل كانوا حفنة من الذين أغراهم تسامح العثمانيين
الديني ، وترفعهم فوق العصبية القومية والعرقية ،
فتسللوا كالأفاعي الى كيان الدولة العثمانية بعد أن
تستروا بالاسلام نفاقاً ومكراً ، ثم لم يلبثوا أن تسربوا
الى مواقع حساسة في الكيان السياسي والتشريعي
والعسكري للدولة العثمانية ، حتى اذا سنحت لهم
الفرصة وثبوا على السلطة فسيطروا عليها سيطرة خانقة ،
ولم يبق للعثمانيين المسلمين أي تأثير في شؤون الدولة ،

ولم يعد الخليفة إلا دمية بين أيدي هؤلاء ، ينطبق عليه
قول الشاعر :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما تقول البغا

ألا ، وإن الذين ارتكبوا جريمة إكراه الناس على
الترك ، هم مجرمو جمعية الاتحاد والترقي ، وجميعهم
من غير استثناء ، كانوا العوبة بيد الصهيونية العالمية ،
من خلال انتماهم للمحافل الماسونية ، التي ترتبط
ارتباطاً عضوياً بالصهيونية ، كما أن معظمهم كانوا من
اليهود الذين تظاهروا نفاقاً باعترافهم بالإسلام ، والذين
عرفوا باسم يهود «الدومة» .

ولقد ظهر أول نشاط تخريبي لليهود الدومة ضد
الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح ، حين
أقدم طبيبه يعقوب باشا على تسميمه ، ويعقوب باشا
هذا يهودي كان قبل تظاهره بالإسلام يتسمى باسم
مياسترو جاكوب .

بيد أن نشاطهم المكثف لتنفيذ مخططاتهم في القضاء
على الدولة العثمانية المسلمة بدأ بشكل ملحوظ في عام

١٨٣٠ ، حين افتعلوا أمام الدولة مشكلات أدت الى
انسلاخ الجزائر عن الدولة العثمانية ، ثم نجحوا في عام
١٨٨٢ على افتعال أحداث أدت الى انسلاخ مصر ، ثم لم
تلبث أن تبعتها تونس .

وبلغ نشاط يهود الدونمة ذروته بعد تشكيل
جمعية الاتحاد والترقي حين نجحوا في إيصال اليهودي
مدحت باشا وهو ابن حاخام يهودي مجري ، الى منصب
الصدارة العظمى ، وقد استغل مدحت باشا منصبه ،
فزوّر انتخابات مجلس المبعوثان ليضمن فوز ٤٨ نائباً
من غير المسلمين ، من أصل ١١٧ نائباً هم أعضاء المجلس ،
وحين عزله السلطان عبد الحميد ونفاه الى جدة بعد
ثبوت اشتراكه في مؤامرة اغتيال سلفه عبد العزيز ،
قامت قيامة قوى الضغط الصهيونية في العالم تنتصر
لهذا اليهودي الخبيث ، وتطلق عليه لقب «أبو الدستور»
وتلصق بالسلطان عبد الحميد ما هبّ ودبّ من
الافتراءات والباطيل .

ويشتد الأسى في نفس كل مسلم حين يرى الكثير
من الألسنة العربية والمسلمة تردد حتى يومنا هذا ،
هذه الافتراءات بحق السلطان عبد الحميد .

ولم يرتدع يهود الدونمة بمصير مدحت باشا ، بل
طلقوا ينفثون سموهم عبر صحيفة أسسها اليهودي
«يلمان» وأطلق عليها اسم «الوطن» ، وما تزال هذه
الصحيفة تصدر حتى يومنا هذا ، تحمل اسم مؤسسها
ذلك اليهودي الخبيث .

وحين رفض السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٢م
الرشوة المالية الضخمة التي عرضها عليه ثيودور هيرتزل
وايمانويل قره صو ، والحاخام موشيه ليفي ، مقابل
السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، أضاعت الصهيونية
الضوء الأخضر لجمعية الاتحاد والترقي لشن الهجوم
الآخر للقضاء على كيان الدولة العثمانية ، ولم تلبث
الجمعية أن وثبتت الى السلطة في عام ١٩٠٨م ، لتبدأ
في تنفيذ مخططاتها الرهيبة للقضاء على الدولة العثمانية ،
فنجحت في اقضاء السلطان عبد الحميد واستبدلته
بمحمد رشاد الامعة الذي لم يكن يملك من أمر نفسه
شيئاً ، ومنذ عام ١٩٠٨ وحتى عام ١٩١٨م ، حين
اندلعت الحرب العالمية الأولى ، نجح مجرمو جمعية الاتحاد
والترقي ، من خلال افتعال المشاكل المتلاحقة ، في ايصال
الدولة العثمانية الى أسوأ حالات الفوضى والضعف في

جميع النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية ،
وأصبحت الدولة في حالة من الوهن لم تقو معها على
التصدي للضربة الكبرى التي كان يخطط لها مجرمو
الاتحاد والترقي ، والتي لم تلبث أن أسفرت عن القضاء
على الدولة العثمانية ، وإبطال مفعول الخلافة الإسلامية ،
ولا أقول الغاءها ، لأن أحداً في هذا الكون ، كائناً من
كان ، لن يقدر على الغاء الخلافة الإسلامية .

أعود فأؤكد ، أن العثمانيين المسلمين برآء من
جريمة إجبار العرب وغير العرب على التترك ، وبرآء
من المظالم الهمجية التي أوقعها رجالات الاتحاد والترقي
كجمال باشا السفاح وغيره بالأمة العربية ، وبرآء من
سياسة التجهيل والافقار التي مارسها زبانية الاتحاد
والترقي في وطننا العربي ، وبرآء من رجس احياء
النعرات العرقية والقومية التي فرقّت المسلمين وشرذمتهم
فقد كانت تلك البذرة النجسة من غرس جمعية الاتحاد
والترقي الضالعة في خدمة الصهيونية ، ومن غرس
الأقليات غير المسلمة في وطننا العربي ، بوحى من
القوى الكبرى المعادية للإسلام .

ولعل أبلغ دليل على صحة ما أوردت ، هذه العبارات التي أوردها الأستاذ المحامي سليم الصويص في كتابه « أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة » الذي نشر في عام ١٩٧٠ :

يقول الأستاذ الصويص ، وهو عربي نصراني من الأردن :

« هذا هو سجل ثورة ١٩٠٨ الدستورية (أي الثورة التي جاءت بجمعية الاتحاد والترقي الى السلطة) ، سجل كله بطش وازهاب ، وسيطرة الجيش على السياسة ، وانتهاج السياسة التي أدت الى الدمار داخلياً وخارجياً ، وتحولت الشعارات الدستورية والحريات التي تشدقوا بها ، الى ممارسة أبشع صنوف الاذلال والظفیان » .

الا ، فاسمعوها مني جيداً . ان الذين عكروا مياه الأخوة الاسلامية الصافية بين العرب والأتراك ليسوا العثمانيين المسلمين ، بل عصابات جمعية الاتحاد والترقي .

الا ، فاعلموا ايضاً ، انه في الوقت الذي كانت
 نفوس العرب تفور غضباً على ممارسات عصابات الاتحاد
 والترقي ، وتنتها شعوبهم للثورة على استبداد الاتحاديين
 وظلمهم ، كانت جموع العثمانيين الأتراك المسلمين ،
 تنطلق في شوارع اسلام بول في الحادي والثلاثين من
 شهر آذار من عام ١٩٠٩ ، يتقدمها العلماء ، وطلاب
 الشريعة ، واعداد كبيرة من العسكريين ، تعلن ثورتها
 ضد تسلط الاتحاديين على الدولة ، وترفع بأعلى صوتها
 شعار « الشريعة في خطر ، نريد حكم الشريعة » ، ولم
 تتوقف ثورة الجماهير التركية الا بعد أن تخلى الاتحاديون
 عن الحكم لكنهم لم يلبثوا أن عادوا متسللين في ظلمات
 الليل البهيم ، ليثبوا على السلطة من جديد بواسطة
 جيش جاء من سلانيك ، وكان من كبار ضباطه مصطفى
 كمال أتاتورك ، وما هي الا أيام الا وكانت اجساد
 خمسين من العثمانيين المسلمين تتدفق في شوارع استانبول
 وميادينها ، شاهد صدق على مر العصور ، أن بني
 عثمان المسلمين رفضوا ، مثلما رفض اخوانهم العرب
 المسلمون من بعد ، الرضوخ لطفيان عصابة الحقد
 اليهودي ، جمعية الاتحاد والترقي .

التسامح الديني في زمن العثمانيين الأتراك ميزة ايجابية أنكرها العاقدون

لئن حاولت الأحقاد المعادية للإسلام أن تطمس هذه الميزة الايجابية ، وتستبدلها بغرية ظالمة تزعم أن الأتراك العثمانيين كانوا يضطهدون غير المسلمين ، ويجبرونهم على اعتناق الاسلام ، قسرا ، فإن الحقيقة التي تتهاوى أمامها افتراءات العاقدين تؤكد أن العثمانيين جسدوا بصدق أخلاق الاسلام السمحة في معاملتهم لغير المسلمين ، أقول هذا وبين يدي أكثر من دليل :

أولا : ان طبيعة الاسلام الذي التزم به العثمانيون ترفض رفضاً قاطعاً مبدأ الاكراه في الدين « لا اكراه في الدين » ، بل ان أخلاق القرآن ، وعدي النبوة ، تحض على معاملة أهل الكتاب معاملة طيبة ، طالما ابتعدوا عن الكيد للإسلام ، وعن إثارة الفتن ضد المسلمين .

ثانياً : تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين ، أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م ،

وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي ،
فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي
وأنا من غير دينك ، فأجابه عثمان :

بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي تعبده ،
يقول لنا :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا
حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكان هذا التسامح الكريم سبباً في اهتداء الرجل
وقومه الى الاسلام .

ثالثاً : ينقل أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته
على كتاب حاضر العالم الاسلامي ، أن السلطان سليم
عندما رأى أن عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود
في الدولة العثمانية قد زاد عن بضعة ملايين ، وأن هذا
العدد ما ينفك يزداد عاماً بعد عام ، حدثته نفسه أن
يجد طريقة يتخذ بها من تزايدهم فعزم على أن يخيّرهم
بين اعتناق الاسلام ، أو فالطرد من أراضي الدولة
العثمانية .

ولكن ، عندما تناهى الخبر الى مسامح شيخ الاسلام
العالم المؤمن علي أفندي الزنبيلي ، انبرى للسلطان

معتزلاً على هذا الرأي الذي تاباه طبيعة الاسلام ،
وقال للسلطان سليم .

ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود الا الجزية ،
فما داموا يؤدونها ، فقد عصموا منا دماءهم ، وأعراضهم ،
وعباداتهم ، وما يعتقدون ، فلا يحق لك أن تزعجهم في
دينهم ، ولا يحق لك أن تخرجهم من ديارهم .

هنالك أعلن السلطان سليم عن رضوخه لحكم
الاسلام ، ورجع عن عزمه . وهنا أتوقف وقفة قصيرة
لأشير الى أن عدد أهل الكتاب ما كان ليزداد تلك الزيادة
لو لم يكونوا يتمتعون في كنف العثمانيين المسلمين
بالحرية الكاملة في عقيدتهم ، وعبادتهم ، وحرياتهم
الشخصية ، ولو لم يكونوا يتمتعون بالأمان والاستقرار
الذي وفره لهم عدل الاسلام وسماحة الاسلام .

رابعاً : ولقد سجل الأمير سليمان باشا ابن السلطان
أورخان موقفاً كريماً يجسد صدق التزام العثمانيين
بأخلاق الاسلام وسماحة الاسلام في مجال التعامل مع
أهل الكتاب ، ففي عام ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م ، سجل
التاريخ في صفحاته عملية أول عبور عثماني اسلامي الى
البر الأوروبي للامبراطورية البيزنطية ، حين تسلسل
سليمان باشا على رأس ثمانين من صناديد المجاهدين

الى ميناء جيمنك ، فاستولى على جميع السفن الحربية
التي وجدها في الميناء ، واستعملها في جلب الامدادات
من البر الاسيوي ، أما السفن المدنية ، فقد أصر على
أن يترك لأصحابها حرية التصرف بها ، وحين اضطر
الى استعمال بعضها في نقل الامدادات ، أصر على أن
يدفع لأصحابها مقابل ذلك أجوراً مجزية ، وقد كان
بإمكانه ، كمنتصر ، أن يصادر السفن المدنية مع غيرها
من السفن الحربية .

خامساً : ويشير المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه
« بيوك تاريخ عمومي » ، أي « التاريخ العمومي الكبير » ،
الى أن أهالي المدن البيزنطية المفتوحة لم يكونوا يعتبرون
استيلاء العثمانيين المسلمين على مدنها مجرد فتح لها
وانما كانوا يعتبرون ذلك تخليصاً لهم وانقاذاً من ظلم
الدولة البيزنطية ، ويعبر أحمد رفيق عن ذلك بقوله
باللغة التركية القديمة : « أهالي يه أودرجه أمن واعتماد
بخش ايله مشدى كه ، بونلر مسلمان عثمانليلري ،
فاتحدن زيادة خلاصكار صفتيله قبوله باشلا شلردي »
وترجمتها الحرفية بالعربية .

« لقد بدأ الأهالي (أهالي المدن البيزنطية المفتوحة)
يشعرون بالأمن والثقة ، لدرجة أنهم كانوا لا يعتبرون

الأمر مجرد فتح لمدينهم ، وانما تخليصاً لهم وانقاذاً لهم
أيضاً .

ولعمري ، ان هؤلاء البيزنطيين ما كانوا ليعتبروا
العثمانيين المسلمين منقذين ومخلصين لهم من ظلم
البيزنطيين ، لولا أنهم وجدوا منهم كل تسامح ومعاملة
طيبة كريمة .

ويروي أحمد رفيق أن أورخان بن عثمان ، عندما
فتح الله عز وجل عليه مدن مالتيه ، وازميت ، وازنيك ،
عامل أهالي هذه المدن من النصارى معاملة طيبة ، وأقام
العدل بينهم ، فأسلم الكثيرون منهم ، أما الذين آثروا
البقاء على دينهم ، فقد أعنهم على دينهم ، وأعرضهم ،
وأموالهم ، وحریاتهم ، مقابل الجزية ، كما سمح لمن
أراد الهجرة منهم الى داخل الامبراطورية البيزنطية ببيع
أموالهم ، وأخذ كل ما يرغبون من أموالهم ومتاعهم
معه .

سادساً : يقول الدكتور فاضل حسين في كتابه
« محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية »
المطبوع في عام ١٩٥٨ م .

كان الأتراك العثمانيون أقوياء وأصحاء ، وقد حكم الدولة الجديدة سلسلة من الحكام القديرين الذين اتبعوا سياسة التسامح الديني نحو رعاياهم من غير المسلمين ، فاستطاعوا استمالة الكثير من الأمراء المسيحيين المنشقين على حكوماتهم .

سابعاً : ولقد سبق أن قلت أن الفضل ما شهدت به الاعداء ، ولذا فاني سأورد شهادات مصادر معادية للإسلام تؤكد أن العثمانيين أظهروا تسامحاً دينياً كريماً تجاه غير المسلمين .

* ففي الصفحة رقم ٢٧٦ من المجلد الثامن من الموسوعة اليونانية الشهيرة المعروفة باسم (Megalia Elliniki Engiklopedia)

المطبوعة في أثينا في عام ١٩٣٢م تذكر الموسوعة اليونانية أن أورخان بن عثمان بعد أن استسلمت له حامية مدينة ازنيك البيزنطية أعطى الأمان لجميع أهاليها من الروم البيزنطيين ، على حياتهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وممتلكاتهم .

وتردف الموسوعة اليونانية قائمة :

ان النصارى البيزنطيين آثروا البقاء في مدينتهم وأملاكهم تحت سيادة العثمانيين ، عندما خيروهم أورخان

بين البقاء فيها أو أخذ كل ما يريدون من أموالهم ومتاعهم
والذهاب إلى أية منطقة بيزنطية أخرى إن أرادوا البقاء
على ولائهم للامبراطورية البيزنطية .

* أما شهادة الكاتبة الأمريكية الدكتورة ماري
ملزباتريك فهي تعدل ألف شهادة ، ذلك أن هذه الأمريكية
عاشت في استانبول في بداية هذا القرن وألفت كتاباً
اسمته « سلاطين بني عثمان » نفتت في صفحاته ركام
أحقاد قرون طويلة من العداوة للإسلام والمسلمين .

تقول ماري ملزباتريك في كتابها الذي ترجمه إلى
العربية في عام ١٩٣٣ حنا غصن وكامل مروة ، وكامل
صموئيل مسيحية :

« الواقع أن السلطان محمد قد أظهر تسامحاً عظيماً
مع المسيحيين ، وليس أدل على تسامحه معهم من قوله
لهم : « انني أقسم بحرمة مساجد الله التي تتعبد بها ،
أن أضمن لكم أن تجتمعوا في كنائسكم للصلاة والتضرع
إلى الله » .

* ويقول المؤرخ الفرنسي كارادوكو في كتابه
« مفكرو الإسلام » :

حين دخل السلطان محمد كنيسة أياصوفيا ،
أراد أن يراعي شعور النصارى ، فلم يشأ أن يمحو
العديد من صور الفسيفساء التي امتلأت بها جدران
الكنيسة ، وقد كان بإمكانه كمنتصر أن يفعل ذلك ،
ولكنه اكتفى بأن أمر بأن تغطي لأن الاسلام يحرم
الصور ، .

* ولعل شهادة المستشرق الألماني كارل بروكلمان،
التي وردت في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب
الاسلامية » ، تعطي الدليل الناصع على أن الأتراك
العثمانيين أظهروا تسامحاً كريماً في معاملتهم لأهل
الكتاب ، فقد ذكر كارل بروكلمان أن تطلع شبان
النصارى الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص
السلطان العثماني ويخلصون له .

ولعمري ، انه لولا ما كان يراه هؤلاء النصارى من
تسامح كريم ، ومعاملة نبيلة ، تفرضها سماحة الاسلام،
وأخلاق الاسلام فانهم ما كانوا يطمحون الى تحقيق
مستقبل باهر في كنف العثمانيين ، وما كانوا يندفعون
بكل حماس للدخول في دين الله عز وجل .

ولعل هذا الخبر الذي نشرته مجلة نصرانية يعطي مزيداً من الأدلة على صدق التزام العثمانيين بسياسة التسامح الديني مع أهل الكتاب ، فقد نشرت مجلة «المشرق» التي كانت تصدر بإدارة كلية القديس يوسف، ويتألف تحريرها الأب لويس شيخو اليسوعي ، في عددها الصادر في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١١م ، الخبر التالي على الصفحة رقم ٨٩٨ :

« من بين الدلائل على أن الدولة العثمانية العلية تريد المساواة بين عناصرها المختلفين ، انها قامت في العام المنصرم ، بتعيين أحد مواطنينا الروم الكاثوليك وهو السيد ابراهيم أفندي صوصا ، واليا على إحدى الولايات العثمانية الهامة التي تضم جزائر بحر سفيدي والارخبيل ، ورودرس ، وكريانوس ، ويتموي ، وصافس ، ومعدالي ، ولينوس ، وامبروس » .

وترد في المجلة قائمة :

وقد دُعي دولته مؤخراً ليشغل منصب الوزارة لإدارة شؤون البريد في الدولة .

✱ ونعود الى الدكتورة الأمريكية ماري ملزباتريك ، لنقدم هذه الشهادة التي أوردتها في كتابها « سلاطين بني عثمان » .

تقول ملزباتريك :

الواقع أن السلطان محمد الفاتح أظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين (النصارى) ، وكان لكل ملة في زمنه رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان مباشرة ، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة ، وأماكن للعبادة وأديرة ، كما أنه لم يكن يحق لأحد أن يتدخل في مالياتها ، وكانت تنطلق الحرية لكل ملة لتتكلم اللغة التي تريدها .

* ويقول برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية في جامعة لندن في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » :

لقد أصبح اليونانيون الأرثوذكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني ، فلم يعودوا أعداء يخشى جانبهم بعد أن تحولوا إلى جيران مسلمين .

ويردف برنارد لويس قائلاً :

كانت المسيحية (النصرانية) واليهودية ، في نظر العالم الإسلامي ، دينين سماويين ينظر إليهما المسلمون نظرة تسامح ، وقد انعكست هذه النظرة المتسامحة من

المسلمين في المعاملة الحسنة ، والتسامح الكبير الذي يلقاه اتباع الديانة المسيحية (النصرانية) في المجتمعات الاسلامية ، بالرغم من موقف المسيحيين العدائي للاسلام كديانة منافسة .

ثامناً : ولقد كان لغير المسلمين في مجلس المبعوثان « مجلس النواب » كما يروي أمير البيان شكيب أرسلان الذي كان نائباً في المجلس ، خمسة عشر مقعداً للنصارى الأرثوذكس ، وخمسة عشر مقعداً للنصارى الأرمن ، وخمسة مقاعد لنصارى العرب ، وبالإضافة الى هؤلاء كان في المجلس عدد من النواب اليهود .

تاسعاً : وينبغي أن أشير الى أن رعاية الدولة العثمانية من غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام خاص أطلق عليه اسم « نظام الملل » ، وهو نظام يرعى شؤونهم الدينية ويفصل في قضاياهم الشخصية ، ولم تكن الدولة بموجب هذا النظام تتدخل في أي شأن من شؤونهم ، وكانت تعتبر الرؤساء الدينيين لكل طائفة غير مسلمة مسؤولين عن شؤون تلك الطائفة .

وقد وضع هذا النظام في زمن السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية مباشرة ، ثم عدل وأضيفت عليه

اعتيازات جديدة في عام ١٨٥٦م بعد انتصار الأتراك
على روسيا في حرب القرم ، وسمى هذا النظام المعدل
باسم « خط همايون » .



والآن ، وبعد أن سقنا هذه الوقائع والحوادث ، وعي
غيبض من غيبض من منات الوقائع والحوادث المماثلة
التي يزخر بها تاريخ الأتراك المسلمين ، والتي تصلح
كل واحدة منها لتكون دليل البراءة للعثمانيين المسلمين
من فرية اضطهاد النصارى وغيرهم من أهل الكتاب .

الآن ، تبقى لدينا كلمة ، لا بد أن نقولها :

ان هؤلاء الذين يرمون الأتراك المسلمين بفرية
اضطهاد النصارى ، واجبارهم على دخول الاسلام ،
مثلهم كمثل الفانية التي تتحدث عن الفضيلة ، واللص
الذي يتحدث عن الأمانة ، والمجرم الذي يتحدث عن
الشفقة والرحمة ، بل لكاني بالذي قال المثل السائد
« رمتني بدائها وانسلت » ، ما أراد بمثله هذا الا هؤلاء
الحاقدين المفترين .

والا فكيف يجرو هؤلاء على اتهام الأتراك المسلمين
بهذا البهتان اللئيم ، ثم يتناسون ما اقترفته أيديهم
وسيوفهم من مجازر وحشية ضد المسلمين ؟
ولئن كان أولئك الحاقدون يتناسون ، فإن ذاكرة
التاريخ لا تنسى .

فذاكرة التاريخ تقول على لسان ابن الأثير في كتابه
« الكامل في التاريخ » :

« ان ملك الروم نيقفور بوخاس بنى على مقربة من
حدوده مع ديار الاسلام مدينة ليكون قريبا من تخوم
المسلمين ، وكان المسلمون في طرسوس ، ومصيصة في
حال من الضنك والضعف لا يقدرّون معها على التصدي
لنيقفور ، فأرسلوا اليه يطلبون مهادنته ، فوعدهم بذلك ،
وأرسل اليهم وفداً يعقد العهد معهم ، فلما عاد الوفد
الى نيقفور ، أخبروه بما وجدوا عليه المسلمين من ضعف
وجوع ، حتى بلغ بهم الأمر أن يأكلوا الكلاب الميتة ،
فاغراء ذلك بالغدر ، وتفجرت الأحقاد في قلبه ، فأنكر
وعده ، وهجم على مصيصة ، فاقتحمها في الثالث عشر
من رجب من عام ٣٥٤هـ - ٩٦٥م ، وأعمل السيف في

المسلمين ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم استباح المدينة ، واسترق من بقي من أهلها المسلمين رجالا ونساء وأطفالا وشبتهم في سائر بلاد الروم ، وكانوا قريبا من مئتي ألف انسان .

ثم مضى نحو طرسوس ، فلقيه أهلها بريايات الاستسلام ، فدخلها ، وعمد الى مسجدها الكبير ، فحوله الى اسطبل لخيوله ، ثم عمد الى المسلمين ، فخيرهم بين الدخول في النصرانية ، أو أن يطردهم خارج ديارهم وأموالهم ، فتنصر منهم من تنصر ، وآثرت الكثرة منهم الهجرة الى ديار المسلمين فرارا بدينهم وأعراضهم .

وذاكرة التاريخ تقول أن الألف من جنود الحملة الصليبية الرابعة ، عندما وصلوا الى القسطنطينية ، وكانت آنذاك عاصمة النصرانية ، الشرقية ، لم يكثرثوا لأخوة الدين التي تجمعهم بأهالي القسطنطينية ، فاستباحوها ، ونهبوا كنائسها ، وأعملوا السيف في أهلها من اخوانهم في الدين .

وذاكرة التاريخ لم تنس ، واني لها أن تنسى ، تلك المجزرة الوحشية التي اقترفها الصليبيون ، عند

استيلائهم على أنطاكية عام ٤٩١هـ ، حيث طفق أهل
المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم
على قتل المسلمين .

ويروي مؤلف كتاب « زبدة الجلب » أن الصليبيين
نظرفوا في قتل كل من وجدوه في أنطاكية من المسلمين ،
فقتل وأسر وسبي من الرجال والنساء والأطفال ما
لا يدركه حصر .

وذاكرة التاريخ لم تنس ، وأني لها أن تنسى ،
تلك المجزرة الوحشية التي ارتكبتها الصليبيون في بيت
المقدس يوم اقتحموها عام ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م ، إذ لبث
الصليبيون أسبوعاً كاملاً يقتلون فيه كل ما تطله
سيوفهم من المسلمين ، حتى بلغ شهداء المسلمين في تلك
المجزرة أكثر من سبعين ألف شهيد بين رجل وامرأة
وطفل .

وبلغ من حقد هؤلاء الصليبيين أن يكتب أحد أمرائهم
إلى زوجته في أوربا يبشرها أن « جنودنا كانوا يخوضون
حتى سيقانهم في دماء المسلمين » ، بل إن المؤرخ الصليبي
وليم الصوري لا يملك إلا أن يعترف أن بيت المقدس

أصبحت « مخاضة واسعة من دماء المسلمين تبعث على
الاشمئزاز » .

وذاكرة التاريخ تقول أن القائد المجري هونياد بعد
أن هزم جيشاً للعثمانيين المسلمين في زمن السلطان مراد
الثاني عام ١٤٤٢م ، قتل جميع الأسرى المسلمين وكان
عددهم ينوف عن العشرين ألف ، وأنه كان يتلذذ أثناء
تناوله لوجبات طعامه بمشاهدة جلاديه وهم يقطعون
رؤوس الأسرى المسلمين ، ويأمر بتجميع تلك الرؤوس
على شكل أكوام لا تلبث أن تصبح هدفاً لهونياد وحاشيته
يرشقونها بالحصى وهم يتضحكون .

وما لنا نكاد ننسى مجازر الأندلس ، ومحاكم
تفتيشها ، وما أدراك ما محاكم تفتيشها ، يوم كان
يؤتى بالمسلم مكبلاً بالحديد ، فيوضع على النطع ،
ويعلو من فوق رقبتة سيف الجلاد ، أو يؤتى به إلى
شفا حفرة تستعر فيها النيران ، ثم يخير بين النصرانية
أو الموت قتلاً بالسيوف أو تحريقاً بالنيران ، حتى لم
يبق في الأندلس كلها مسلم واحد يشهد أن لا إله إلا
الله ، بل لقد اشتط الحقد بأولئك الصليبيين فعمدوا
إلى مقابر المسلمين يمحونها من على وجه الأرض .

أفبقى بعد كل هذه الأدلة وتلك ، أي شك في
برائة الأتراك المسلمين من فرية اضطهاد النصارى ؟
ثم أبقى بعد كل هذه الأدلة وتلك ، أي شك في أولئك
الذين يرمون الأتراك المسلمين بتهمة الوحشية ، هم
أنفسهم المتوحشون ، الذين انقطع بينهم وبين
الانسانية والخير كل رباط .

العثمانيون الأتراك

لعبوا دوراً رائداً في إعادة لحمه الوحدة
الاسلامية ، ولم يكونوا مستعمرين
ولا مستبدين

« الاستعمار العثماني » ... !

« الاستعمار التركي » ... !

« نير الاحتلال التركي » ... !

« الاستبداد التركي » ... !

هذه العبارات الظالمة ما زالت أجيالنا المسلمة
تتلقاها في معظم مدارسها ، ومعادنها ، وجامعاتها ،
وكانها يقين لا يرقى اليه شك .. !

ان حق الاخوة الاسلامية ، وان مقتضيات الأمانة
العلمية ، تضعان في عنق كل مسلم ومسلمة غيور
مسؤولية التصدي لاستنكار هذا البهتان العظيم الذي
الصق بالعثمانيين الأتراك .

ان الأتراك العثمانيين لم يستعمروا البلاد العربية ،
وانما أعادوا لحمة الوحدة اليها تحت الراية الاسلامية ،
بعد أن رزحت طويلا في مستنقعات التشردم والخلافات
التي كانت تحتدم بين الزعامات الهزيلة .

ان الأتراك العثمانيين لم يعتدوا على البلاد العربية ،
وانما همعوا لانقاذها من أخطار الاطماع الصليبية التي
كادت توشك أن تنقض عليها والتي وصلت جيوشها
البرتغالية الى البصرة بعد أن سيطرت على عُمان
ومسقط ومضيق هرمز ، لتتخذ منها نقطة انطلاق نحو
الحجاز ومصر والشام ، بينما هددت الاساطيل
الاسبانية شمال افريقيا العربي المسلم .

ان الأتراك العثمانيين لم يكونوا مستبدين ، ولم
يقيدوا حريات العرب أو غير العرب ، ويكفي الأتراك
العثمانيين فخراً أن المواطن العثماني ، عربياً كان ،
أو تركياً ، أو كردياً أو آيا ما كان انتماؤه القومي ،
كان يجوب أرجاء الدولة العثمانية من اسلام بول وحتى
طنجة واليمن ، وهو مطمئن أنه ينتقل في وطنه ، لا
يسأله احد عن جواز سفر ولا تتعقبه عيون السلطة .

ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أنهم رواد الوحدة
العربية الحقيقية حين وحدوا البلاد العربية كلها تحت
راية الاسلام ، فلما أن غابت تلك الراية التي تشرف
العثمانيون برفعها ، انفرط عقد الوحدة العربية
الحقيقية ، وتمزقت الراية الواحدة لتصبح بضعا
وعشرين راية ، وأصبح المواطن العربي لا يستطيع
السفر من بلد عربي الى آخر ، الا بعد ان ينتظر ساعات
طويلة على الحدود ، وقد يسمح له بالسفر ، وقد لا
يسمح له فيعود من حيث أتى ، وقد يقذف به في دهاليز
المخابرات فلا يدري أحد متى يعود ؟

فيا أيها الذين تبحثون عن الحق والحقيقة ،
اسمعوها صريحة داوية :

ما كان العثمانيون الأتراك مستعمرين ولا مستبدين ،
وانما كانوا رواد الوحدة الاسلامية الحقيقية وحمايتها .
اقول هذا وبين يدي اكثر من دليل .

اننا حين نقرأ التاريخ القديم والحديث ، نجد أن
كل الهجمات الاستعمارية ، أيا كانت راياتها ، كانت
تنطلق بدافع الاطماع الاقتصادية ، أو السياسية ،

أو الدينية ، التي كانت تستحوذ على عقول المستعمرين ،
فتغريهم باستعمار غيرهم من الشعوب .

وحين ندرس تاريخ العثمانيين الأتراك نجد أنهم
كانوا حريصين على أن لا يرفعوا سيوفهم الا في وجه
اعداء الاسلام ، البيزنطيين الارثوذكس ، وحلفائهم
نصارى اوربا الكاثوليك ، ونجد أن الأتراك العثمانيين
لم يرفعوا سيوفهم في وجه مسلم الا بعد أن يكونوا قد
استنفدوا جميع الوسائل لمنع ذلك ، فكانوا يضطرون
لذلك مرغمين ، ومن الانصاف أن نذكر أن معظم الذين
كان العثمانيون يحاربونهم من شراذم أمراء الامارات
السلجوقية كانوا يستعينون على العثمانيين بأعداء
الاسلام من البيزنطيين أو البنادقة .

لقد كانت أنظار العثمانيين الأتراك مصوبة نحو
القسطنطينية باعتبارها السد المتين الذي يحول بين
الاسلام وبين التقدم في اوربا النصرانية ، ولم يكن
يشغلهم عن هذا الهدف الا ما كان يفتعله بعض أمراء
السلاجقة من مكائد ضد الدولة العثمانية ، كما حدث
حين أعلن الأمير علاء الدين أمير سلطنة قرمان السلجوقية

الثورة على السلطان مراد بن أورخان ، زاعما أنه
الوريث الاحق بالسلطنة باعتباره الوارث الشرعي
لزعامة دولة سلاجقة الروم ، فاضطر السلطان مراد
آنذاك الى ارجاء خطته لغزو القسطنطينية ليتفرغ للقضاء
على فتنة علاء الدين .

وفي الوقت الذي حرص فيه العثمانيون الاتراك
على تجميع القوى الاسلامية في الاناضول التركي لمواجهة
العدو البيزنطي - الأوربي ، فقد حرصوا على توثيق
العلاقات الاخوية الاسلامية مع المراكز الاسلامية الأخرى ،
وأعطوا أهمية خاصة لتوثيق علاقاتهم بدولة المماليك
التي كانت تعتبر أقوى زعامة اسلامية في البلدان العربية
بحكم خضوع مصر والشام والحجاز لسيطرتها .

وكانت أول محاولة عثمانية لتوثيق علاقات الاخوة
الاسلامية بدولة المماليك في عهد السلطان مراد بن
أورخان حين أرسل وفداً خاصاً الى سلطان مصر يبشره
فيها بتحرير مدينة أدرنة من البيزنطيين ، وبرفع
الراية الاسلامية فوقها في عام ٧٦٣هـ - ١٣٦٢م .

وحين استشهد السلطان مراد بن أورخان بضربة
غادرة من جندي صليبي أثناء تفقده لجرحى معركة

قوصوه (٧٩١هـ - ١٢٨٩م) ، كان لخبر استشهاده
رنة حزن عميق في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وكان
السلطان المملوكي برقوق من أوائل الذين أرسلوا وفداً
للمتعزية بالشهيد .

وفي عهد السلطان العثماني بايزيد الصاعقة ابن
مراد ، عرض السلطان بايزيد على سلطان مصر المملوكي
برقوق تشكيل جبهة اسلامية موحدة تلاحق « أهل
الصليب » في عقر دارهم أوربا .

وحين اقتحم تيمورلنك بغداد عاصمة الخلافة
العباسية التي كانت آنذاك اسما على غير مسمى ، لم
يكتف العثمانيون الأتراك باعلان تضامنهم مع الخليفة
العباسي ، بل اتخذوا موقفاً علنيا الى جانبه ، فاحتضنوا
الأمير أحمد جلالي ، أمير بغداد الذي التجأ اليهم ،
وأمدوه بالمعونة العسكرية والمادية للتصدي لتيمورلنك
واستعادة مركز الخلافة العباسية ببغداد منه ، وكان
لهذا الموقف العثماني تأثير كبير في توثيق العلاقات بين
الدولة العثمانية وبين دولة المماليك التي كانت تعتبر
نفسها حامية الخلافة العباسية بعد أن التجأ اليها

الخلافة العباسي المتوكل على الله الاول قرارا من
تيمورلنك ، وقد لعب السلطان برقوق دورا كبيرا في
اقناع الخلافة العباسي باصباح لقب «سلطان الروم»
على بايزيد الصاعقة ، فاشتد حنق نصارى أوروبا
وتيمورلنك ، فقد اعتبروا هذا التكريم لبازيد بمثابة
اعتراف رسمي من أكبر سلطة دينية اسلامية في ذلك
الوقت متمثلة في الخلافة العباسي ، بسلطة بايزيد على
الاجزاء الأوروبية التي استولى عليها من البيزنطيين .

وازدادت العلاقة الاخوية الاسلامية بين الدولة
العثمانية ودولة المماليك حين بعث السلطان محمد
الفاتح بوفد ينقل الى سلطان مصر اينال شاه بشرى
استيلاء المسلمين على القسطنطينية ، وينقل ابن اياس
في كتابه «بدائع الزهور» وصفا لوصول وفد السلطان
الفاتح الى القاهرة فيقول :

لما وصل وفد الفاتح ، زفت البشائر بالقلعة ،
ونودي في القاهرة بالزينة ، ثم ان السلطان عين برصباي
امير اخور رسولا الى ابن عثمان لتهدئته بالفتح .

وينقل المؤرخ المصري ابن تغري بردي في كتابه
« حوادث الدهور » أن وفد السلطان الفاتح وصل الى
القاهرة في الثالث والعشرين من شوال من عام ٨٥٦هـ
وفق ٢٧ تشرين أول من عام ١٤٥٣م ، وكان مع الوفد
هدايا وأسيران من عظماء الروم ، فسر السلطان والناس
قاطبة بهذا الفتح العظيم ، ودقت البشائر لذلك ،
وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ، ثم طلع الوفد ومعه
الأسيران الى القلعة في يوم الاثنين ، الخامس والعشرين
من شوال ، بعد أن اجتاز الوفد شوارع القاهرة ،
وكان الناس قد زينوا الحوانيت ، والأماكن ، وأمعنوا
في ذلك الى الغاية ، وعمل السلطان الخدمة (الضيافة)
بالحوش السلطاني في قلعة الجبل .

وكان لفتح القسطنطينية أثر كبير في إيقاظ مشاعر
الاخوة الاسلامية التي كانت ظروف التشرد السياسي
المستحكمة آنذاك في العالم الاسلامي قد كبته عقوداً
طويلة .

بيد أن حرص العثمانيين الأتراك على تعزيز الروابط
الاخوية الاسلامية مع دولة المماليك الشراكسة بدأ
يقابل بشيء من الفتور من قبل المماليك بعد أن شعروا

بتعاطف شعبية العثمانيين بين المسلمين نتيجة لاستيلائهم
على القسطنطينية ورفعهم راية الاسلام فوق ربوعها .
ولم يطل الامر حتى بدأ المماليك الشراكسة يتوجسون
خيفة من العثمانيين الأتراك ، فتبدلت نظرتهم الى
العثمانيين من مشاعر الاعتزاز الى مشاعر الغيرة ، ولم
يعودوا يعتبرون العثمانيين اخوانا في الدين ، بل منافسين
لهم على زعامة المسلمين التي كان المماليك الشراكسة
يعتبرون أنفسهم الأحق بها باعتبار أنهم كانوا يحتضنون
ال خليفة العباسي ، رمز الخلافة الاسلامية .

ولئن كانت الوقائع التاريخية تشير الى براءة
العثمانيين الأتراك من التسبب في تلك الأزمة التي
اعترت علاقتهم بالمماليك الشراكسة ، فإن من مقتضيات
الحق والحقيقة ، أن نوميء بأصابع الاتهام الى المماليك
الشراكسة ، وتحميلهم مسؤولية ما وصلت اليه العلاقات
العثمانية المملوكية من فتور ، لم يلبث أن تطور الى
مواجهة مكشوفة ، حين أقدم المماليك في عام ٨٧٦هـ -
١٤٧١م على مهاجمة مقاطعتي مرعش ويليستان اللتين
كانتا تخضعان للحماية العثمانية ، وازداد الامر سوءاً
حين أقدم المماليك على اعدام حاكم المقاطعتين شهوار بك ،

شقيق زوجة السلطان محمد الفاتح ، وتعليق رأسه
على باب زويلة في القاهرة .

ومع ان ذلك الاستفزاز السافر قد أغضب السلطان
محمد الفاتح ، الا أنه آثر أن يكظم غيظه ، حقنا للدم
المسلم ان ينساب في غير الهدف الذي ينبغي ان يسيل
من أجله ، خاصة وأنه كان يواجه في ذلك الوقت تحالفاً
صليبية متواصلة تكيد للدولة العثمانية المسلمة .

بل لقد عمد السلطان الفاتح الى تناسي تلك الحادثة
الاستفزازية ، وأرسل الى الملك الأشرف سيف الدين
قايتباي يطلب اليه السماح له بإنشاء استراحات
لاستضافة حجاج بيت الله الحرام على طول طريق الحج
الى مكة المكرمة على حسابه الخاص ، فما كان من السلطان
قايتباي الا ان اشتط في استفزازه للسلطان الفاتح ،
فرفض طلبه ، بعد ان خشي ان تزيد هذه الاستراحات
من شعبية السلطان الفاتح في بلاد الشام ومصر
والعراق .

وينبغي ان نشير هنا الى نقطة في غاية الأهمية ،
وهي ان السلطان الفاتح آثر ان يكظم غيظه ، ويلجم

نفسه . استجابة لمقتضيات الاخوة الاسلامية التي كان
العثمانيون يحرصون على ابرازها في جميع تصرفاتهم ،
ولو انه اراد أن يقابل استفزاز المماليك الشراكسة
واساءتهم لاستطاع أن يفعل ذلك بكل تأكيد ، ولو انه
فعل ذلك فانه سيجد من المسلمين في مصر وبلاد الشام
تعاطفاً وتأييداً ، باعتباره بطلاً اسلامياً حظي بشرف
قيادة الجيش الذي شرفه الله عز وجل بفتح
القسطنطينية ، ونظراً لان المماليك الشراكسة لم يكونوا
يتمتعون آنذاك بشعبية صادقة سواء في مصر أو الشام .

ولقد ذكرنا ان المماليك الشراكسة صعدوا
استفزازاتهم للدولة العثمانية في وقت كانت تواجه فيه
أخطار المكائد الصليبية ، التي تمثلت آنذاك في تشكيل
حلف صليبي انبثق عن مؤتمر ترأسه البابا بول الثاني
في رمضان من عام ٨٧٥هـ (كانون ثاني ١٤٧١م) ،
وانضم اليه ملك نابولي وملك الاراغون ، وزعماء
جمهوريات البندقية ، وفلورنسة ، وسيتي ولوكوس ،
وزعماء دوقيات ميلانو ، وفراري ، ومودينا ، وسافوي ،
ولقد بلغ استفزاز المماليك الشراكسة للعثمانيين مداه
حين قبلوا التفاوض مع مندوبي هذا الحلف الذين

عرضوا على المماليك الدخول في الحلف ضد الدولة العثمانية ، أسوة بالأمير حسن الطويل الذي قبل التحالف مع الصليبيين ضد العثمانيين المسلمين .

ولئن كان المماليك الشراكسة قد اعتذروا عن الدخول في الحلف ، الا أنهم وعدوا بأن يمدوا يد العون الى المناوئين للدولة العثمانية في الاناضول المتاخم لحدود بلاد الشام ، وخاصة للأمير حسن الطويل .

بيد أن مكر الله عز وجل كان أكبر من مكر المماليك الشراكسة وحليفهم حسن الطويل ، فبينما كان المماليك الشراكسة يبدون استعدادهم لتقديم أية مساعدات الى حسن الطويل بما في ذلك المشاركة الفعلية في النشاطات الحربية ضد العثمانيين في المناطق المتاخمة لحدودهم مع الدولة العثمانية ، كان الغرور قد بلغ بحسن الطويل مبلغا جعله يعتقد أنه صاحب الحق الوحيد في وراثة الدولة العثمانية ودولة المماليك الشراكسة معا ، فبعث برسالة الى زعماء البندقية ، يقترح عليهم تعديل خططهم بحيث لا يقتصر هجوم جيوش الحلف الصليبي على الدولة العثمانية وحدها ، وانما على مصر والشام أيضاً ، وكان من حسن حظ العثمانيين أن يقع رسول حسن

الطويل في قبضة العثمانيين ، فأنكشفت خديعة حسن
الطويل ، وما كان من السلطان الفاتح الا أن أرسل
الرسالة الى السلطان الاشرف قايتباي في مصر ، الذي
أدرك بعد أن تكشفت له حقيقة حسن الطويل ، أن
عليه ان يقف على الحياد ، رغم ما كان يضمرة في
سريره من عداوة للدولة العثمانية .

وينبغي أن نشير الى انه لو نجح البابا بول الثاني
في جر المماليك الشراكسة الى التحالف الصليبي الذي
ترأسه ، أو لو أن حسن الطويل لم يقدم على
خيانة المماليك الشراكسة ، واستمر في تعاونه معهم
باخلاص ، فإن الدولة العثمانية كانت ستجد نفسها
في مازق خطير يهدد كيائها بالانهيار الكامل ، حيث
كانت ستقع بين مطرقة الحلف الصليبي ، وسندان
التحالف المملوكي مع حسن الطويل .

ولم تلبث العلاقات العثمانية المملوكية ان عادت
الى التوتر اثر التجاء الأمير جم ابن السلطان محمد
الفاتح الى السلطان قايتباي بعد ان استتب أمر السلطنة
العثمانية للسلطان بايزيد ابن السلطان الفاتح ، وقد
تعهد قايتباي ان يبالح في اكرام الأمير جم لتدعيم مركزه
السياسي في العالم الاسلامي .

وقد بلغ توتر العلاقات العثمانية المملوكية مداه في عهد السلطان سليم الأول الملقب بياووز ، أي القاطع ، ففي الوقت الذي كان فيه السلطان سليم قد عقد معاهدة صلح لمدة طويلة مع دول عديدة من بينها سلطنة مصر المملوكية ، والبندقية والمجر وروسيا ، ليتفرغ للتصدي لخطر الدولة الصفوية الشيعية ، فوجي ، بخبر اقدام سلطان المماليك الجراكسة البرجية قانصوه الغوري على عقد تحالف عسكري وسياسي مع الشاه اسماعيل الصفوي ضد الدولة العثمانية ، وكان من نتيجة هذا التحالف اصطدام الجيوش العثمانية المتوجهة الى محاربته الصفويين ، بعراقيل عديدة اثناء اجتيازها للمناطق التي تخضع لسيطرة دولة المماليك الشراكسة البرجية ، ولم يقف استفزاز المماليك للعثمانيين عند هذا الحد بل صعد المماليك استفزازهم بسماحهم لوفد الشاه اسماعيل الصفوي بالمرور من الأراضي التي يسيطرون عليها في طريقهم الى البندقية لطلب المساعدة ضد العثمانيين .

وحين حقق العثمانيون نصراً حاسماً ضد الدولة الصفوية الشيعية ، ورفعوا الراية العثمانية الاسلامية

فوق البلاد التي كانت تخضع لحكم الصفويين وأصحابها
 العراق ، تقلص نفوذ الراية الصفوية الشيعية وخاصة
 في البلاد العربية ، ولم يبق في أفق العالم الاسلامي
 غير الرايتين العثمانية والمملوكية ، وكان استمرار هذه
 الازدواجية يعني استمرار حالة التشرذم الاسلامي ،
 وكان من الطبيعي أن يدرك المسلمون أن وحدتهم التي
 ينشدونها لن تتحقق الا اذا طويت إحدى هاتين
 الرايتين ، وكان لا بد للأصلح ، والاقوى ، ان يغلب ،
 فانخفضت راية الدولة المملوكية ، وأصبح سماء العالم
 الاسلامي حكراً لراية واحدة هي راية الدولة العثمانية
 الاسلامية ، بعد ان حسمت الجيوش العثمانية معركة
 بلاد الشام في مرج دابق التي أسفرت عن مقتل السلطان
 المملوكي قانصوه الغوري في يوم الاحد ٢٥ رجب من
 عام ٩٢٢ هـ (٢٤ آب ١٥١٦ م) ، ثم معركة مصر في
 ٨ محرم من عام ٩٢٣ هـ (٣١ كانون ثاني ١٥١٨ م) .

واتساءل الآن :

هل من الانصاف ان نتهم العثمانيين الأتراك بتهمة
 استعمار مصر والشام ؟

بل ان من الظلم الفادح ان نرعى الأتراك العثمانيين بهذا البهتان العظيم . اننا حين نراجع تسلسل المراحل التي مرت بها العلاقات العثمانية المملوكية نجد ان العثمانيين كانوا حريصين على توثيق علاقاتهم الاخوية الاسلامية باخوانهم المسلمين في مصر وبلاد الشام ، ولذلك حرصوا على توثيق علاقاتهم بدولة المماليك حرصاً على ان يظهر الصف الاسلامي صفاً موحداً في وجه المطامع الحاقدة . ولكن المماليك لم يقابلوا هذه العواطف الاسلامية الصادقة بما تفرضه مقتضيات الأخوة الاسلامية . بل عمدوا الى افتعال المشاكل لاستفزاز الدولة العثمانية ، وبلغ بهم الأمر الى درجة المجاهرة بالعداء للعثمانيين ، والدخول في ائتلاف مع اعدائهم ، تارة مع حسن الطويل ، وأخرى مع البنادقة ، وأخيراً مع الصفويين الشيعة ، ولم يتركوا مناسبة يتدخلون فيها في شؤون الدولة العثمانية الداخلية الا وانتهزوها ، فطفقوا يحتضنون المعارضين للدولة ، ويمدونهم بالمساعدة ، بل بلغ بهم الأمر الى حد الهجوم على بعض المناطق الخاضعة للدولة العثمانية ، واعداد حاكمها

شقيق زوجة السلطان محمد الفاتح ، وتعليق رأسه على
باب زويلة في القاهرة .

ان العثمانيين الأتراك لم يفتعلوا المشكلات للكيد
ضد دولة المماليك ، بل ان المماليك هم الذين كانوا
يفتعلون المشكلات .

وان العثمانيين لم تكن لهم نوايا ظاهرة ، ولا
مستترة ، ضد دولة المماليك ، بينما ثبت بأكثر من
دليل سوء نية المماليك ازاء الدولة العثمانية ، ولقد
تواترت الروايات ، ومنها ما ذكره الدكتور عبد العزيز
سليمان نوار في كتابه «الشعوب الاسلامية» ، تؤكد
ان السلطان سليم لم يكن مصرا على اكمال زحفه على
مصر بعد انتصاره على السلطان قانصوه الغوري في معركة
مرج دابق ، وانه عرض على السلطان الجديد طومان
باي أن يعلن خضوعه للدولة العثمانية في مقابل ان
يسند له السلطان سليم حكم مصر ، ولكن طومان باي
أصر على الحرب التي انتهت بالقضاء عليه وعلى دولته .
ومن هنا نستطيع ان نجد في موقف السلطان العثماني
سليم دليلا جديداً على عدم وجود النية المسبقة لدى
العثمانيين لاحتلال مصر ، وانهم انما كانوا يهدفون

الى تحقيق الوحدة الاسلامية تحت راية واحدة ، ولو
ان طومان باي تنازل عن غروره ورضي بعرض
السلطان سليم ، لثمت الوحدة الاسلامية آنذاك بروح
اخوية ، ولم يكن العثمانيون ليضطروا لتحقيقها عنوة .

ثم ، هل من الانصاف ان نلوم الأتراك العثمانيين
اذا هم تصدوا للرد على محاولات الماليك للاجهاز على
كيانهم السياسي بتحالفهم مع حسن الطويل ، ثم مع
البنادقة ، ثم مع الصفويين ؟

وبأي منطق يصبح توحيد المسلمين تحت راية واحدة
استعماراً ؟

لقد كانت حال البلاد العربية قبيل ارتفاع الراية
العثمانية الاسلامية فوقها ، كمثل حالها اليوم ، دويلات
متشرذمة متناحرة ، هذه تمسك بخناق تلك ، وتلك
تتآمر على أخرى ، والكل هدف لاطماع الطامعين .

كانت مصر والشام تحت سيطرة الماليك ، وكانت
البلاد قد وصلت في أواخر عهد الماليك الى حالة بائسة
من الاضطراب والفقر والظلم والتسلط ، ولم يقتصر
عداء الماليك للعثمانيين على الدخول في تحالفات ضدهم

مع الصفويين ، بل لقد رفضوا السماح للجيش
العثماني بالمرور من الأراضي التي يسيطر عليها المطالب
في بلاد الشام وهم في طريقهم للتصدي للجيش الصليبي
البرتغالي التي احتلت عدن ومضيق هرمز ووصلت الى
البصرة في عام ٩٢١ هـ .

وكانت العراق تحت سيطرة الدولة الصفوية
الایرانية الشيعية المذهب ، وهي الدولة التي اشتط بها
الحقد ضد العثمانيين الى درجة عقد تحالف مع
البرتغاليين الصليبيين ضد الدولة العثمانية .

وكانت بلاد شمال افريقيا تواجه خطر تكرار مأساة
الاندلس على اراضيها ، وكانت طرابلس الغرب (ليبيا)
توزح تحت سيطرة الاحتلال الاسباني الذي بدأ في
عام ٩١٦ هـ . ثم مدوا سيطرتهم الى الجزائر فاستولوا
على مليلة وجزيرة بينون والمرسى الكبير .

وكانت معظم موانئ مراكش (المغرب) على طول
الساحل الاطلسي تحت سيطرة البرتغاليين .

ارايتم الى الاضطبوط حين تمتد اذرعه لتنهش في
فريسته من كل جانب ؟ . .

كذلك كانت حال البلاد العربية آنذاك ، مثلما هي
حاليها اليوم . فقد كان أخطبوط الاطماع الصليبية
ينشب اظفاره في كل جزء منها .

وكان من الطبيعي ان يتطلع المسلمون الى من ينقذهم
من هذه المحن ، فهرعوا الى دولة المماليك الشراكسة
البرجية ، فراعهم ان يجدوها تنظر الى الامر نظرة
المنفرج ، وكان الامر لا يعنيها ، فقد كان العداء للعثمانيين
قد أعمى بصيرتها عن الخطر الصليبي الماحق .

وكان من الطبيعي ان تتوجه انظار المسلمين نحو
دولة بني عثمان التي ملأت شهرتها الآفاق باعتبارها
العدو الألد للاطماع الصليبية ، فتوالت الوفود الشعبية
الى السلطان سليم تستنجد به لانقاذ بلاد العرب المسلمة
من خطر الصليبية الجديد المتمثل بالبرتغاليين
والاسبان .

أفان استجاب العثمانيون لصرخات واسلاماء التي
انطلقت من أفواه الملايين من مسلمي البلاد العربية في
المشرق والمغرب ، فتقدموا بجيوشهم لطرد البرتغاليين
والاسبان منها ، انبرى الحاقدون ليزعموا ان ذلك كان
استعمارا عثمانيا ، وسيطرة تركية ٠٠ ؟

ونأتي الآن الى الفرية التي تزعم ان العثمانيين
الأتراك مارسوا سياسة الاستبداد ضد العرب ، فاشير
الى براءة العثمانيين الأتراك من هذه الفرية ، بل انهم
هم الذين خلصوا العرب المسلمين من الاستبداد والظلم ،
والعنت ، الذي كان يلحقه بهم رجالات دولة المماليك
الشراكسة البرجية ، وكتب التاريخ التي أرخت للمماليك
مليئة بالروايات المتواترة عن اشكال العنت والارهاق
التي كان يتعرض لها المصريون وأهل الشام من أمراء
وقواد وعساكر المماليك ، وكيف كان هؤلاء يتفنون في
ابتكار الاساليب الهمجية لارغام الناس على دفع الاتاوات
والضرائب لهم . ويصف الدكتور علي حسون في كتابه
« تاريخ الدولة العثمانية » حالة البلاد العربية بقوله :
كانت البلاد العربية مفككة الاوصال ، تحكمها
دويلات صغيرة .

ويصف المؤرخ المرحوم محمد كرد علي في الجزء
الثاني من كتابه « خطط الشام » حالة بلاد الشام قبيل
الفتح العثماني لها بقوله :

باتت امور السلطنة "لعوبة" في كثير من الأدوار بأيدي
ضعاف الاحلام من أسرة ذاك المملوك (السلطان المقيم

بصر) ، وقد اشتد الظلم حتى قال العالم ابن الفرغور
الشافعي المولوي لنائب السلطان :

لقد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسناً .

فاستاء نائب السلطان المملوكي وأسمع العالم
الشيخ ما يكره .

ويردف محمد كرد علي قائلا :

لقد أزممت الفوضى في أرجاء الدولة وساءت حالتها
الاقتصادية والاجتماعية ، وأحس الناس مما وصلت
اليه الدولة (المملوكة) من ضعف فأخذوا يتطلعون الى
الدولة العثمانية ، وكان الناس لا فرق عندهم اذا
استولى عليهم الترك الأعاجم ، اذ لا فرق في الاسلام بين
عربي وأعجمي في الحقوق والواجبات ، وأقصى ما يتطلبه
الناس سلطان عادل عاقل .

ويستطرد محمد كرد علي قائلا :

ان ما نال السكان في أواخر حكم المماليك قد عجل
بالقضاء عليهم ، وفتح قلوب السكان للسلطان سليم
الأول ، وخدمه كثير من أهل الشأن قبل مجيئه ، فكانوا

يرافقونه بالأخبار ويطلعونه على مواطن الضعف عند
 الماليك ، وحين انتصر بنو عثمان لم يبك على الماليك
 الا من كانوا يتمتعون بخيراتهم ، وأصبحت الشام بالفتح
 العثماني آمنة من غزوات الشمال والشرق والجنوب .
 أما العثمانيون فقد حرصوا على ان يطمئن جميع
 الناس الى أنهم يعاملون كمواطنين مسلمين في دولة
 مسلمة تصون كرامتهم ، لا كرعايا يساقون بالسياسة
 وتمتحن كرامتهم صباح مساء ، وتبتز أموالهم من دون
 حساب .

ويذكر الدكتور علي حسون في هذا الصدد في كتابه
 « تاريخ الدولة العثمانية » (ص ٥٩) ان السلطان سليم
 ومن بعده السلطان سليمان القانوني كانا يهدفان الى
 جعل البلاد العربية جزءاً من الكيان العثماني (الاسلامي)
 الواحد ، وانهما حرصا على منع أية إجراءات من شأنها
 المساس بالعرب ، وان العلماء المسلمين من العرب كانوا
 يتمتعون بسلطات واسعة ، وانهم كانوا على اتصال
 مباشر بالعاصمة اسلامبول .

ويذكر الدكتور احسان حقي في تعليقاته على كتاب
 « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الذي ألفه المرحوم

محمد فريد بك المحامي ، ان الأتراك كانوا لا يفرقون
بين مسلم ومسلم مهما كان انتماؤه العرقي والقومي ،
وان العرب كانوا شركاء للأتراك في الحكم ، وان اللغة
العربية كانت اللغة الرسمية المستعملة في البلاد العربية
في القضاء والادارة .

ويردف الدكتور احسان حقي قائلا :

لقد ظلمنا العثمانيين اذ سميناهم مستعمرين ونحن
منهم ، وظلمناهم اذ قلنا انهم مخربون ونحن منهم ،
وظلمناهم اذ قلنا انهم أساءوا الى البلاد ونحن منهم .

ويذكر الأستاذ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب
والترك في الصراع بين الشرق والغرب » ان حالة البلاد
العربية قبيل الفتح العثماني كانت قد وصلت الى أشد
درجات السوء ، وان العالم الاسلامي كان يتطلع الى
منقذ ينقذه من الهاوية التي سقط فيها ، فلما خرج
آل عثمان الى ميدان الكفاح وظهرت بوادر نجاحهم في
حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية ، علق المسلمون
عليهم الآمال ، واتجهوا بقلوبهم اليهم ، فالعالم الاسلامي
الذي كان قد استولى عليه اليأس من جراء الكوارث

التي حاقت به في الشرق والغرب ، شعر اثر هذه الانتصارات التي احرزها العثمانيون ، سواء في البر أو البحر ، بحياة جديدة ردت اليهم الآمال ، ورفعت رؤوسهم كرة أخرى .

ويستطرد الأستاذ محمد جميل بيهم ، فيشير الى أن العثمانيين الأتراك قد خلفوا العرب في رفع راية الاسلام ، وان المسلمين الذين كانوا فريسة لغزاة الشرق والغرب ، وجدوا في آل عثمان ذلك المنقذ الذي كانوا يترقبونه ، بل وجدوا فيهم أكثر من هذا امبراطورية استعادت كرامتهم ، ورفعت رايتهم كرة أخرى فوق الذروة التي كانت تخفق عليها في الأمس القريب .

ويذكر الدكتور عبد العزيز سليمان نوار في كتابه « الشعوب الاسلامية » ، ان فتح العثمانيين للمشرق العربي (مصر وبلاد الشام والعراق والحجاز واليمن) كان سهلاً وسريعاً بعكس فتوحاتهم في البلقان وفارس ، وحين نحاول تفسير مقولة الدكتور نوار نجد ان التفسير المنطقي لسهولة الفتح العثماني في المشرق العربي يرجع الى ان سكان المشرق العربي وكلهم مسلمون كانوا لا يرون في العثمانيين عدواً تنبغي محاربته ، ولذلك

كانت استجابتهم للمماليك فاترة ، فلم يلتحقوا بأعداد كبيرة في الجيوش المملوكية ، مما سهل على العثمانيين الانتصار على الجيوش المملوكية الرسمية .

ويردف الدكتور عبد العزيز سليمان نوار موضحاً الدور الجليل الذي لعبه العثمانيون في إبعاد الخطر الصليبي البرتغالي الحبشي عن الأراضي المقدسة ، فيقول :

لقد كسب الحجاز كثيراً من وراء ذلك الارتباط السريع بالدولة العثمانية ، فقد كانت حملات البرتغاليين على البحر الأحمر متتالية وبلغت حدتها في عام ١٥١٧م حين وصلت إلى جدة بالذات ، فقام العثمانيون بإرسال قوات حميتها من تكرار العدوان البرتغالي .

ومن ناحية أخرى كان إرسال العثمانيين حملاتهم إلى اليمن ومساعدتهم لامارة «عدل» الإسلامية ضد الحلف البرتغالي الحبشي ، سبباً في إبعاد الخطر الصليبي عن الأراضي المقدسة الإسلامية .

وإذا كنا نلوم العثمانيين في أنهم فشلوا في تجميع قلوب أهل اليمن حول الحكم العثماني ، فإن اللوم

يجب ان يوجه الى أئمة اليمن أنفسهم من حيث انهم فشلوا في ادراك ان القوات العثمانية لم تأت الى اليمن ابتغاء الكسب المادي منه ، وانما ابتغاء الدفاع عن بلاد المسلمين عامة واليمن بصفة خاصة ، ولقد اثبتت سيطرة العثمانيين على شواطئ الخليج العربي ، انهم كانوا يقومون بدور الدولة الاسلامية العامة المسؤولة عن الدفاع عن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ومثلما بذل العثمانيون جهوداً بحرية كبيرة في المياه الجنوبية ضد البرتغاليين ، فانهم بذلوا جهوداً مثلها في شمال افريقيا ضد الاسبان .

ولكي ندرك أهمية هذه الشهادة التي أوردها الدكتور نوار ، ينبغي ان نشير الى أن الخطر البرتغالي والاسباني لم يكن خطراً عابراً ، وانما كان خطراً ماحقاً كاد يعصف بمشرق الوطن العربي ومغربه لولا ان الله عز وجل ساق العثمانيين الأتراك للتصدي له .

فالبرتغاليون ، اندفعوا الى المياه الجنوبية الاسلامية وهم يحملون فكراً صليبيّاً راسخاً ، تؤججه أحقاد قرون طويلة كان سكان شبه جزيرة أيبيريا (اسبانيا والبرتغال) يضمرونها ضد الاسلام والمسلمين ، وكان

بابوات روما يؤججون هذه الأحقاد الصليبية في قلوب
البرتغاليين ، وما زالوا يشجعونهم على تصعيد حملاتهم
ضد السواحل الإسلامية ، حتى أصبح البرتغاليون
لا يتورعون عن المجاهرة بأن تدمير المقدسات الإسلامية
في الحجاز يأتي في مقدمة أهدافهم .

أما الخطر الإسباني ، فقد كان مثلاً آخر للحقد
الصليبي ضد الإسلام والمسلمين ، وزاد من حدة خطورة
الخطر الإسباني ، أن نشوة نصرهم ضد المسلمين في
الاندلس ، قد أغرتهم بتوسيع نطاق نشاطاتهم الحربية
إلى شمال إفريقيا لاجتثاث المسلمين منها كما فعلوا في
الاندلس .

ويؤكد الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب
والترك » حقيقة الدور الرائع الذي لعبه الأتراك
العثمانيون في حماية البلاد العربية من الخطر الصليبي ،
فيقول :

يحتل العثمانيون الأتراك مركزاً فريداً في تاريخ
العرب لا تحتل مثله أية دولة أخرى في التاريخ ، وعندما
عجز الماليك عن حماية العالم العربي من البرتغاليين

والاسبان والصفويين الشيعة ، تدخل العثمانيون كحماء
ومحررين ، ورحب العرب ، ولا سيما في بر الشام ،
بقدوم العثمانيين ، ونظروا اليهم كمنقذين ، ونجى
العثمانيون في حماية العالم العربي من اعدائه الخارجيين
اكثر من ثلاثة قرون ، وتمكنوا من منع الكمائن
الافرنجية (البرتغالية الاسبانية الجرمانية) من الاطباق
على العالم العربي .

وبعد ...

فلعلني اكون قد اقامت الدليل على بطلان الفرية
التي تزعم ان الاتراك العثمانيين كانوا مستعمرين
ومستبدين للبلاد العربية .

ولعل الأيدي الحريصة على الحق والحقيقة تمتد
الى كتب التاريخ التي ما زالت أجيالنا تقرأ فيها هذه
الفرية الظالمة ، فتزيلها منها ، وتستبدلها بالحقيقة
الناصعة التي تؤكد ان العثمانيين الاتراك لم يستعمروا
البلاد العربية ، ولكنهم أعادوا اليها لحة الوحدة
الحقيقية تحت راية الاسلام ، وحموها من أخطار الأحقاد
الصليبية ، برتغالية واسبانية وبابوية ، وان العثمانيين

الأتراك لم يستبدوا بالشعوب العربية ، وإنما تأخوا
معها تحت ظلال الاسلام .

وعلى الذين يجاهرون بفرحتهم بزوال ما يطلقون عليه
بهتاناً وظلماً « الاستبداد العثماني » ، أن يقارنوا حالنا
اليوم ، بحالنا بالأمس يوم كنا جزءاً من الدولة العثمانية ،
واني لا أكاد أجزم أنهم لو فعلوا ذلك ، لترحموا على
أيام « الاستبداد العثماني » ، وتمنوا عودتها ، إلا إذا
كانوا يظنون أن وجود بضع وعشرين راية في سماء
وطننا العربي أفضل من وجود راية واحدة ، وإلا إذا
كانوا يظنون أن ضياع فلسطين أفضل من بقائها ، وإلا
إذا كانوا يعتقدون أن الانتظار على مراكز الحدود التي
تحول بين المواطن العربي وبين أخوانه الآخرين أمر
يبعث على البهجة والسعادة ، وإلا إذا كانوا يظنون أن
وجود اضبارة لكل مواطن عربي في دهايز المخابرات
أمر يشعر المواطن العربي بالأطمئنان على مستقبله
ومستقبل عائلته ، وإلا إذا كانوا يعتقدون أن علاقاتنا
بالانجليز والأمريكان قد جلبت لنا العسل واللبن ،
والعزة والكرامة ، والحرية والتقدم ، التي حرمتنا منها
العثمانيون الأتراك ٠٠ ؟؟

الجيش العثماني

لم يكن جيشاً انكشارياً تشكل من أطفال
النصارى ، بل كان جيشاً اسلامياً ،

قوامه أبطال الاسلام

من اخبت الافتراءات التي الصققتها الاحقاد الصليبية
اليهودية بالأتراك العثمانيين المسلمين ، تلك الفرية التي
تزعّم أن العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال النصارى من
احضان آبائهم وأمهاتهم ، ليكرهوهم على اعتناق الاسلام ،
ثم يلحقونهم بالجيش العثماني .

وقد تبني هذه الفرية اللثيمة معظم المؤرخين
الأجانب ، واذكر منهم كارل بروكلمان ، وجيبونز ،
وجب ، وسومرفيل ، وموردتميل .

وتزعّم الفرية أن العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال
النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق
الاسلام ، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى
بنظام «الدشirme» ، وزعموا أن هذا النظام كان يستند
الى ضريبة اسلامية شرعية اطلقوا عليها اسم « ضريبة
الغلمان » ، واسموها أحياناً « ضريبة الأبناء » ، وهي

ضريبة زعموا أنها تبيع للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا
خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية ، باعتبارهم
خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين .

وينقل كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب
الاسلامية (العثمانيون الأتراك وحضارتهم) ، تفاصيل
عن ضريبة الغلمان المزعومة فيقول :

ان ضريبة الغلمان كانت تجمع كل خمس سنوات
ثم تقاصرت المدة في ما بعد حتى صارت تجمع آخر
الأمر مرة كل سنة ، وكان الاختيار يقع في بادئ الأمر
على غلام واحد من كل خمسة غلمان ، ثم صارت
الدولة تنتزع فيما بعد جميع الغلمان السليمي البنية
من تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشر .

ويزعم بروكلمان أن الموظفين العثمانيين كانوا
يأخذون الرشاوى من آباء الغلمان الأثرياء ليتركوا
لهم أبناءهم ويعود بروكلمان ليؤكد أن ضريبة الغلمان
على ما كانت عليه من قسوة لم تولد لدى الآباء الذين
كان أبناءهم ينتزعون منهم مصدر قلق ، أو ألم كبيرين
بسبب ما كان هؤلاء الآباء يؤملونه لأبنائهم من مستقبل
باهر من انضمامهم الى الجيش الجديد .

كلام يهدم بعضه بعضاً .

إذا ، ما دام أن الآباء لم يكونوا يجدون في التحاق
أبنائهم بالجيش الجديد مصدر قلق ، بل يجدون في
ذلك مصدر أمل بمستقبل باهر لأبنائهم ، فلماذا
يدفعون الرشاوي ، ليحولوا بين أبنائهم وبين ذلك
المستقبل الباهر الذي ينتظرهم ؟؟

على أن الأمر الذي يبعث على الدهشة والعجب ،
أنك لا تقر في أي مصدر من تلك المصادر التي تنفت
مثل هذه المزاعم وتحدث عن ضريبة الغلمان أو عن
غرية اكراه النصارى على الاسلام ، الا ويتولد لديك
انطباع أن هذه المزاعم هي من صياغة مؤلف المصدر
نفسه ، فكل واحد منهم ينفت الغرية بمعلومات تختلف
عن المعلومات التي تنفتها المصادر الأخرى ، وتزداد
الدهشة أنك لا تجد أي مصدر من هذه المصادر يستند
روايته بأي سند تاريخي ، كان يذكر اسم المصدر الذي
نقل عنه مزاعمه سواء كان كتاباً أو مخطوطة أو مؤرخاً
معيناً ، ويزداد العجب أن هؤلاء الزاعمين لا يقدمون بين
يدي مزاعمهم أية نصوص من مواد تلك الضريبة الغريبة
المعجبية التي يطلقون عليها اسم ضريبة الغلمان ، ولا
يشيرون الى اسم واضعها ، ولا الى تاريخ وضعها مما

يؤكد بطلان هذه المزاعم ، وبراعة العثمانيين المسلمين
من وزرها .

واجدني هنا مضطراً للتوقف قليلا عند عبارة وردت
على لسان كارل بروكلمان وهو يتحدث عن معاملة
العثمانيين للغلمان النصارى الذين يزعم أنهم كانوا
ينتزعون من بيوت آبائهم بوحشية ويكرهون على ترك
معتقداتهم ويجبرون على اعتناق الاسلام .

يقول بروكلمان بالحرف الواحد :

وكان الغلمان يصنفون أصنافاً خمسة (لا يذكر
شيئاً عن حدود هذه الأصناف الخمسة أو مواصفاتها) ،
وكان تدريبيهم يلتزم المبادئ الانسانية الى أبعد
الحدود ، على الرغم من صرامته .

عجبا ، كيف يجتمع الضدان في شيء واحد ، كيف
يكون العثمانيون المسلمون في غاية الانسانية تارة ،
ثم يكونون في غاية الوحشية تارة أخرى في نظر
بروكلمان . . ؟؟

الا ما أشد جراءة هؤلاء على الباطل ، ولكاني بالذي
وضع المثل القائل (رعتني بدائها وانسلت) ما أراد

بمثله هذا الا هؤلاء الحاقدين من أعداء الاسلام ، الذين
يتناسون مجازرهم التي أوقعوها بالمسلمين ، ليرموا
المسلمين العثمانيين بهذا البهتان العظيم ، وهم أول
من يعلم أن أهالي المدن البيزنطية التي فتحها الله على
المسلمين العثمانيين كانوا يعتبرون المسلمين مخلصين
ومعتقدين لهم من البيزنطيين وفسادهم .

أما كلمة «دوشرمة» ، فهي كلمة تركية تكتب باللغة
التركية Dos,orme ، دوشرمة وكانت تكتب في السابق
دوشرمة بزيادة الفاء ، ولكن الأصح أن تكتب بدون
الفاء ، وهي تعني في اللغة التركية الاسقاط أو السقوط ،
وتطلق عادة على المواليد حديثي الولادة الذين تجهض بهم
أمهاتهم فيخرجون الى الدنيا أمواتاً ، أو على الذين تلدهم
أمهاتهم سرّاً ، ثم يقذفون في الطرقات أو على أبواب
الملاجئ ، ثم انسحبت هذه الكلمة على كل طفل لقيط أو
مشرود لأي سبب من الأسباب .

وفي بلاد العرب يجري اللسان كثيراً بهذه الكلمة
فيقال « رجل داشر » ، يراد به الرجل الذي لا يعرف
له ولي أمر يرجع اليه في شؤونه ، ويقال « امرأة

داشرة ، ، يراد بها المرأة التي لا يعرف لها ولي أمر
يرجع اليه في شؤونها .

ويزعم مفتررو هذه الغرية أن نظام الدوشرمة كان
يستند كما ذكرت قبل قليل ، الى ضريبة غريبة من
نوعها ، زعموا أن المسلمين العثمانيين فرضوها على
نصارى المدن البيزنطية المفتوحة وأطلقوا عليها اسم
ضريبة الأبناء أو الغلمان ، وزعموا أن هذه الضريبة
كانت تمثل حصّة بيت مال المسلمين من غنائم المدن
المفتوحة ، بمعدل خمس عدد اطفال كل مدينة .

ويستمر مطلقو هذه الغرية في هرائهم ، فيزعمون
أن السلطان كان يرسل وكيلا الى كل مدينة وقرية
نصرانية ، ويطلب من قسيسها كشفاً بأسماء الاطفال
الذين قام بتعميدهم ، فيختار الوكيل من بينهم عدداً
يعادل خمس مجموعهم الكلي ، ممن تتراوح أعمارهم
بين الثامنة والعاشرة ، ثم ينقل هؤلاء الاطفال الى
العاصمة حيث تنقطع الصلة نهائياً بينهم وبين ذويهم .

ويمضي المفتررون في هذيانهم فيزعمون أن هؤلاء
الاولاد كانوا يكرهون على التحول الى الاسلام ، بمجرد

وصولهم الى العاصمة ، ويجري ختانهم ، ثم يلتحقون
بمدارس خاصة زعم بروكلمان أنها كانت أربع مدارس
أحدها في السرايا القديمة في استانبول وأخرى في
السرايا الجديدة في استانبول ، علماً بأن استانبول لم
تكن قد فتحت للمسلمين في زمن السلطان أورخان
والسلطان مراد وهما اللذان تزعم الفرية أن أحدهما
هو الذي ابتدع ضريبة الغلمان ، والثالثة في أدرنة
والرابعة في بيزة ، يتعلمون فيها مبادئ الاسلام واللغة
التركية ، والتاريخ الاسلامي العام ، والتاريخ العثماني
والنظم العثمانية ، وفق مناهج وضعت خصيصاً لتمحو
كل أثر من آثار أصولهم وعواطفهم النصرانية الأولى ..

والحقيقة ، أن نظام الدشرمة المزعوم ليس سوى
فرية دأست على تاريخ مراد بن أورخان وانسحبت
من بعده على العثمانيين قاطبة ، فلم يكن نظام الدشرمة
هذا كما يزعم الحاقدون لارغام النصارى على الاسلام ،
وانما كان نظاماً انسانياً أخذت الدولة على عاتقها بموجبه
مسؤولية رعاية اللقطاء والمشردين من الأطفال النصارى
الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتاماً أو مشردين ..

فالإسلام الذي يدين به العثمانيون ، ويحترمونه ،
ويستهدونه في شؤونهم ، يرفض رفضاً قاطعاً تلك
الطريقة غير الإنسانية في انتزاع الأطفال من أحضان
آبائهم وأمهاتهم ، وقطع أية صلة لهم بهم ، وليس في
الإسلام ذكر لهذه الضريبة العجيبة الغريبة التي
يسمونها ضريبة الغلمان ، إلا ساء ما يفترون .

ولو أننا عدنا إلى دراسة ظروف الفتح الإسلامي
العثماني للمدن البيزنطية ، فإننا سنرى أن عدداً كبيراً من
الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم نتيجة موتهم في المعارك
التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين ، أو في أثناء هرب
آبائهم وأمهاتهم ، وهو أمر يحدث في كل حرب .

ولم يكن غريباً أن يتعهد المسلمون ، بما عرف عنهم
من سماحة وشفقة ، أولئك الأطفال اليتامى والمشردين
الذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم
لآبائهم وأمهاتهم ، ولا عجب إذن أن يسعى المسلمون
لإحتضان هؤلاء الأطفال وتأمين مستقبل كريم لهم .
وهل من مستقبل كريم وأمين إلا في الإسلام .

أفسان حرض المسلمون على أن يعتنق الأطفال
المشردون التائبون الإسلام ، انبرى المفترون يزعمون

أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من احضان آبائهم
وأمهاتهم ؟؟ ويكرهونهم على الاسلام ؟؟

من هنا جاءت فرية ما يسمى بنظام «الدشمة» .
فلقد راع الحاقدين أن يرعى المسلمون العثمانيون
هؤلاء الأطفال التائهين المشردين ويسبغون عليهم حنان
الاسلام وسماحة الاسلام ويلحقونهم بركب الاسلام .
لقد هالهم ذلك ، وأعمى بصائرهم ، وفجر براكين
الحقد في صدورهم فلم يجدوا طريقة ينفثون بها حقدهم ،
الا في اطلاق هذه الفرية ، والصاقها تارة بأورخان بن
عثمان وتارة بمراد بن أورخان ، ومن بعدهما بالعثمانيين
قاطبة .

ومن العجب الذي يبعث على الأسى أن هذه الفرية
الحاقدة ، وهذا البهتان اللثيم ما فتى أبناء المسلمين
يتلقونه في مدارسهم وجامعاتهم ، وكأنه أمر مسلم به
لا يرقاء شك .

ولكم يشتد الأسى في نفس المسلم ويتعاطم ، حين
يكتشف أن هذه الفرية ، لا بل هذا البهتان العظيم ،
اللثيم ، قد انطلى على العديد من المؤرخين المسلمين ،
وبعضهم يشهد له بالفيرة على الاسلام ، ولا نذكر على

الله أحدا ، فطققوا ، وما برحوا حتى يومنا هذا ،
يرددون هذا البهتان في مؤلفاتهم .

فالمؤرخ المسلم محمد فريد بك المحامي ، يزعم في
كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » أن السلطان
« كان يأخذ الشبان من أسرى الحرب النصرارى ويفصلهم
عن كل ما يذكرهم بأصلهم وجنسهم ويربيهم تربية
اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أباً الا السلطان ،
ولا حرفة غير الجهاد في سبيل الله » .

ويزعم الدكتور علي حسون في كتابه « تاريخ
الدولة العثمانية » ، أن هذا الجيش الجديد قد تكون
« من أبناء الدول الأوربية المفتوحة الذين دربوا عسكرياً
وتلقوا الاسلام منذ الطفولة في رعاية السلطان العثماني
حيث كان هو المختص بهم » .

ويزعم المؤرخ المسلم محمد كرد علي في كتابه
« خطط الشام » ، أن الجيش الجديد « تشكل من أولاد
المسيحيين (النصارى) من الرعايا العثمانيين كالبوشناق
والروم والصرب والبلفار والألبان ، بحسب اللزوم ،
وبموجب قانون التجنيد المعروف عندهم بقانون الـ
«دوفرمة» ، وذلك من أهل الروم ايلي ومن سكان

الأناضول على قلة ، ويعفى من ذلك الأرمن وسكان
جزيرتي ساقز ورودس ، ويأخذونهم من أهلهم في سن
العاشرة الى الخامسة عشرة ، ويربونهم تربية اسلامية
ثم يجعلونهم في الثكنات في الآستانه .

وينقل المؤرخ المسلم عمر عبد العزيز هذه الفرية
في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية »
الذي يدرس في بعض الجامعات العربية .

ومن المؤسف أن مثل هذه الروايات رغم ما بينها
من تناقض ، وما فيها من ضعف سببيته بعد قليل ،
وعلى الرغم من أن أيتا من الذين تناقلوها في مؤلفاتهم لم
يستندوا باستند تاريخي موثق ، فإنها قد انطلت على
معظم المؤرخين العرب والمسلمين ، وتناقلتها مؤلفاتهم ،
وما فتئت أجيالنا العربية المسلمة تتلقى هذه الفرية في
مدارسها ، ومعاهدها ، وجامعاتها ، وكأنها يقين لا يرقى
اليه شك ، وما هي في حقيقة الأمر الا بهتان تفتته
الأحقاد المعادية للإسلام ، فتلقفه معظم المؤرخين العرب
والمسلمين ، ولا أحسب الا أن هؤلاء قد نقلوا ما ذكروه
من غير تمحيص ، من مصادر لا يحسب واضعوها
للإسلام أي حساب ، بل وربما كانوا من المؤرخين الذين

يقصدون الاسماء للإسلام عن طريق الطعن في العثمانيين
والافتراء على تاريخهم .

ولشد ما أمني أن أجد المؤرخ المسلم الفيور محمد
كرد علي رحمه الله ، في كتابه « خطط الشام » ، يتبنى
هذه الفرية من غير تردد وكأنها يقين لا يرقى اليه
شك . ويشند الأسى ويتعاطف ، حين نراه رحمه الله
يتهم العثمانيين صراحة بمخالفة الشريعة الإسلامية إذ
يقول :

« أسس العثمانيون جيش الانكشارية (الجيش
الجديد) على غير مثال في التاريخ ، وخالفوا فيه الشريعة
الإسلامية التي لا تجيز للملك أن يكره الذميين على
استرقاق أولادهم » .

ويبلغ الأسى منتهاه حين يتبنى رحمه الله رأي
المؤرخ النصراني موردمان ، الذي يزعم فيه أن الجيش
الجديد بدأ يدخل اليه الوهن ، ويتسرب اليه الفساد ،
بسبب تساهل السلاطين في السماح « بإدخال أناس
من المسلمين ، واليهود ، والنور الى الجيش الجديد .
والأسفاه ، والأسفاه ، والأسفاه » .

كيف يرضى المؤرخ المسلم الغيور محمد كرد علي
رحمه الله أن يقرن المسلمون مع اليهود والنصارى في
مقام واحد ؟

ونعود الى الرواية الأولى ، رواية الاستاذ محمد
فريد بك ، فنجد أنها تحمل بين طياتها أدلة بطلانها ،
فنحن اذا عدنا قليلا الى زمن عثمان ، ثم انتقلنا الى
زمن أورخان ، فاننا سنجد أن المدن البيزنطية التي
فتحتها الله عليهما ، كان بعضها يفتح بدون قتال بسبب
تقبل أهلها للإسلام ، أو بسبب فرار حاكمها وحاميتها ،
فيدخلها المسلمون ويقيمون العدل بين أهلها ، فيجد
فيهم الناس مخلصاً لهم مما كانوا يقاسونه من ظلم الحكم
البيزنطي ، ثم لا يلبث أكثرهم حتى يسلموا ، وأن
بعضها كانت تقبل أن تدفع الجزية وهي قليلة ، وأن
بعضها كانت تختار الحرب ، فيفتحها الله على المسلمين
بعد قتال .

ولقد تواترت الروايات الكثيرة تؤكد أن عثمان
ومن بعده أورخان ، كانا يتركان للبيزنطيين الذين
يؤثرون البقاء على دينهم ، سواء فتحت مدنها سلماً أو
حرباً ، حرية الاختيار بين البقاء في تلك المدن متمتعين

بحريتهم الدينية والشخصية ، أو الهجرة الى داخل
اراضي الدولة البيزنطية حاملين معهم ما يشاؤون من
مال ومناخ من دون أية قيود ، ومن هذه الروايات أذكر
على سبيل المثال لا الحصر ما أوردته الموسوعة اليونانية
الشهرة (Megalia Elliniki Engiklopedia) في صفحتها
رقم ٢٧٦ من مجلدها الثامن .

كما أن عثمان وأورخان لم يكن من سياستهما أخذ
أسرى حرب ، وفي الحالات القليلة التي حدث فيها مثل
هذا ، فإن عدد الأسرى لم يكن كبيراً ، وكان معظمهم
يدخل في الاسلام ليتخلص من الأسر ، فيتعهدهم العلماء
بالتربية الاسلامية ، وكان أكثرهم يحسن اسلامهم
ويستقيمون عن ايمان وصدق على الاسلام ، ونذكر
على سبيل المثال الأمير خوسيه ميخائيل ، والأمير
الفرينوس حاكم بورصة البيزنطي ، اللذين أصبحا فيما
بعد من مشاهير القادة في الدولة العثمانية بعد أن هداهما
الله الى الاسلام وحسن اسلامهما .

وينبغي أن أشير الى أنه على عكس ما يزعمه
الحاقدون من أن العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال
النصارى ويجبرونهم على اعتناق الاسلام ، كان الأهالي

البيزنطيون يقومون بأنفسهم بتقديم أطفالهم الى السلاطان
العثماني لتربيته تربية اسلامية ، وفي هذا الصدد
يذكر الاستاذ عمر عبد العزيز عمر في كتابه « محاضرات
في تاريخ الشعوب الاسلامية » أن العديد من المؤرخين
النصارى يعترفون أن الآباء البيزنطيين كانوا يتشوقون
الى تقديم ابنائهم عن طواعية للسلاطان العثماني ليربيه
تربية اسلامية .

ومن هنا فان مقولة أن اورخان كان يأخذ الشبان
من أسرى النصارى ليجبرهم قسراً على الاسلام ، لا
تستند الى بيئة قوية .

ثم كيف يستقيم القول أن الأسرى كانوا يخضعون
لعملية فصل كاملة عن بيئتهم السابقة لتقطع كل
صلة لهم بها ؟ ثم يقال أنهم من الشبان ، أي أنهم
في مرحلة من النضج والادراك لا يمكن لأية وسيلة أن
تنجح في اجبارهم على نسيان أهلهم ومعتقداتهم الدينية
والسياسية حتى لو تظاهروا بذلك .

اما الروايتان الثانية والثالثة ، روايتا الدكتور علي
حسن ، والاستاذ محمد كرد علي فدليل بطلانهما أن

الأمير علاء الدين ، الأخ الأكبر لأورخان ، والذي كان
يتولى مسؤولية الصدر الأعظم أي رئاسة الوزراء ، هو
الذي أشار على أخيه أورخان بفكرة الجيش الجديد وقد
توفي علاء الدين عام ٧٣٥هـ - ١٣٣٥م ، ونحن نعلم
أن أورخان لم يسيطر على أية أرض بيزنطية داخل
الحدود الأوربية إلا في عام ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م عندما
استولى على غاليبولي وجيمناك وغيرها من المدن والقلاع
البيزنطية .

من هنا تسقط مقولة أن الجيش الجديد كان من
أبناء أسرى البلاد الأوربية المفتوحة ، لأنها لم تكن
مفتوحة عند تشكيل الجيش الجديد .

أما إذا قصدت الرواية بالبلاد الأوربية تلك القلاع
والمدن البيزنطية داخل آسيا الصغرى ، فما قلناه في
تفنيد صحة الرواية الأولى يصلح هنا لتفنيد هذا
الادعاء .

وإذا كان أورخان يختار الأطفال الصغار لجيشه
الجديد فمعنى ذلك أن أعدادهم للقتال سيأخذ سنوات
طويلة ، فلو افترضنا أن معدل أعمارهم عشر سنوات
فإنهم سيحتاجون إلى عشر سنوات أخرى لأعدادهم
ليكونوا قادرين على القتال ، فإذا علمنا أن أورخان قد

استعان في حروبه بهذا الجيش الذي كان قوامه عند
بداية تأسيسه ألف جندي ، بمجرد الفراغ من تأسيسه
وتنظيمه ، تأكد لنا بطلان مقولة أن الجيش الجديد
« قد تكون من أطفال النصارى » .

وهناك رواية تبناها مؤرخ مسلم أثرت أن أفصلها
عن الروايات السابقة آنفة الذكر لأسباب ثلاثة :

الأول : أنها اشتطت كثيراً وأغلظت القول بحق
العثمانيين الأتراك ، بصورة لم نألفها في الروايات الأخرى
المماثلة .

الثاني : أنها وردت في كتاب قيل أنه ينصف
الأتراك العثمانيين ، باعتبار أن تاريخهم وتاريخنا
العربي هما فصلان من كتاب واحد في تاريخ العرب
والمسلمين .

الثالث : أن مؤلف الكتاب مؤرخ مسلم ، واستاذ
جامعي المعى ، له باع طويل ، وخبرة ذائعة في تدريس
التاريخ الإسلامي في العديد من الجامعات العربية
العريقة والحديثة .

وقد وردت هذه الرواية في كتاب الدكتور عبد
الكريم غرايبة المعنون بـ « العرب والأتراك » ، الذي
طبعته جامعة دمشق في عام ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .

تقول الرواية :

لقد شعر السلطان (لم تحدد الرواية اسمه) انه بحاجة الى « كلاب » لتحرس قطعانه أو رعيته ، وتغبر على قطعان غيره ، فلم يجد أمامه من وسيلة الا أن « يصادر الانسان » ويدجنه ، ويدربه ، كما يفعل مع الحيوان ، ودون أن يدع العاطفة تفسد عليه عمله وخطته .

ثم يكرر الدكتور غرايه هذا الكلام في موضع آخر من كتابه بعبارات أخرى تقول : وأخيراً ابتدع أحدهم .. (لم يحدد من المقصود بكلمة أحدهم) فكرة مصادرة أولاد النصارى ، وتدجينهم ، وتأسيس جيش محترف منهم لا يدين بالولاء الا للسلطان .

وبعض الدكتور في روايته قائلاً :

كان السلطان (من غير تحديد الاسم) يرسل كل عام أشخاصاً أو هيئة مدربة على فهم الانسان وتقدير مكانته ، « لتصادر العدد المطلوب من الدواجن البشرية » ليدربوا تربية قاسية اسلامية ، ودون أن يفرض عليهم اعتناق الاسلام .

وقبل أن نشرع في تفنيد هذه الرواية ينبغي أن
نشير إلى أن الدكتور الغرايبة ينسبها إلى المؤرخ
المستشرق «جب» الذي لا يمكن في نظري الاطمئنان إلى
سلامة نواياه تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام ، ثم إلى
المؤرخ النصراني سومرفيل ، الذي يبقى الشك في
سلامة نواياه إسلم في نظري من حسن الظن بها ، ثم
إلى المؤرخ المسلم الغيور أمير البيان شكيب أرسلان ،
من كتابه « تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا
 وإيطاليا والبحر المتوسط » ، واني لأخشى أن يكون
أمير البيان قد نقل ما نقله عنه الدكتور الغرايبة عن
«جب» ، أو عن غيره من المؤرخين الذين هم موضع اتهام
من جهة نواياهم تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام ، ولقد
حاولت جهدي أن أظفر بكتاب أمير البيان لاستوثق
من الأمر ، فما ظفرت به .

وأعود إلى رواية الدكتور الغرايبة ، فأسارع ،
بادئ ذي بدء بالتساؤل :

أين التوثيق العلمي التاريخي في هذه الرواية التي
تعمل قصة خطيرة بحق الأتراك العثمانيين وتكسدهم
تجردهم ، بل إنها قد جردتهم فعلاً من صفة الانتساب

الى الانسانية . حين أظهرتهم شعباً من غير عاطفة ،
يحسب الناس كلاباً ، ويعاملهم كالكلاب أو الأرانب
التي يدجنها الانسان .

من هو ذلك السلطان الذي اكتفت الرواية بالرمز
اليه تارة بقولها (وابتدع أحدهم) وتارة أخرى بقولها
(فقد قرر السلطان) ؟

ومنى تم ذلك الأمر بالتحديد ، وفي أي عام ، بل
في أي عهد من عهود سلاطين بني عثمان الأولين ؟

تم من أين استقى «جب» ، وسومرفيل ، روايتهما
التي نقل عنها الدكتور غراية روايته ؟ ما اسم الكتاب
أو المرجع التاريخي الذي نقلوا عنه ؟

ليس من مقتضيات التوثيق العلمي والتاريخي ،
أن يقدم بين يدي أية رواية تاريخية بالبيانات التي
تدعم صحتها ، من تحديد الاسماء ، وتحديد المكان
والزمان ، وتبيان سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية
حتى وصلت الى الراوي الأخير ؟

ليس من مقتضيات التوثيق العلمي ، أن لا يكتفى
في رواية تحمل تهمة خطيرة لشعب بأسره ، بل لامة

بأسرها ، بل للاسلام ذاته الذي كان العثمانيون الأتراك
يمثلونه آنذاك ، بالتعميم المبهم وبالعبارات المبهمة ؟

ونستغرب كيف ينقل الدكتور الغرايبة ، هذه
الرواية ، وبهذا الأسلوب الجارح ، وكأنها أمر لا يرقى
اليه شك ، ثم نراه يؤكد في موضع آخر من كتابه أن
امارة عثمان أصبحت المنفس الوحيد للحماس الديني
في الاسلام ، وأنها اجتذبت اليها أعداداً من المتحمسين
لنصرة الدين ، الراغبين في الجهاد في سبيل الله ، الذين
كانوا يتقاطرون باندفاع شديد ليقاتلوا تحت راية
العثمانيين ؟

ليس من حقنا أن نتساءل : ما حاجة عثمان ، ومن
بعده أورخان ، ومن بعده مراد ، وهم الذين تناوشتهم
سهام الاتهام بتلك الفرية ، ما حاجتهم الى بضع مئات
من اطفال النصارى الذين يتطلب اعدادهم للجندية
سنوات طويلة ، بينما تنهمر جموع المسلمين المتحمسين
لنصرة الدين والراغبين في الجهاد في سبيل الله ، لتتخرط
في كتائب الجهاد تحت راية آل عثمان ، كما يؤكد
الدكتور الغرايبة في كتابه ؟

الأمر الوحيد الذي نتفق فيه مع رواية الدكتور
نغراية ، هو ما ذكره عن عدم قيام أحد من السلاطين
بإكراه أحد من أطفال النصارى على اعتناق الاسلام ،
ذلك لأن السلطان العثماني المسلم ، لم يكن بحاجة الى
إرغام أحد من أطفال النصارى على اعتناق الاسلام لأن
غالبية الأطفال الذين كانوا يربون تربية اسلامية خاصة
لم يكونوا نصارى وانما كانوا ، كما أوضحنا في ردنا
على الروايات الثلاثة الأولى ، أبناء آباء مسلمين انخلعوا
عن النصرانية ، واهتدوا الى الاسلام ، وطفقوا من تلقاء
أنفسهم وعن طواعية لا عن إكراه ، يقدمون أبناءهم
للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية اسلامية ، أما باقي
الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم
الحروب فاحتضنتهم الدولة المسلمة .

اذن فما هي حقيقة هذا الجيش الجديد ؟؟

الحقيقة التي نراها ، تؤكد أن أورخان بن عثمان
لم يجبر أحداً من أسرى النصارى سواء كانوا شباناً
أو أطفالاً على الاسلام ، لا بموجب نظام اللقطاء ،
أو الموشرمة ، ولا بموجب ضريبة الفلغان المزعومة ،
ليكونوا من بعد نواة لجيشه الجديد .

نقول هذا ولدنا أكثر من دليل :

فالاسلام يرفض مبدأ الاكراه في الدين ، لا اكراه في الدين ، وأورخان رجل مسلم متدين كآبيه ، بل ان أخاه علاء الدين الذي أشار عليه بتشكيل الجيش كان عالماً في الشريعة ومتصوفاً ، فلا يعقل أن يشير على أخيه بأمر تأباه الشريعة . ثم ما حاجة أورخان الى بضع مئات أو حتى الى ألف من أسرى النصارى ليشكل منهم جيشاً سيكون عماد الدولة وحاميتها ، في الوقت الذي يجد فيه من حوله عشرات الآلاف من المسلمين المجاهدين المؤمنين بالاسلام يتقاطرون اليه من جميع الامارات التي حوله حبا في الجهاد في سبيل الله ، في وقت كان فيه الجهاد في سبيل الله ممارسة فعلية في ميادين القتال ، لا مجرد ترف فكري على صفحات الكتب والصحائف ، أو على السنة مجاهدي الصالونات والمؤتمرات .

ان الرواية الحقيقية لكيفية تشكيل الجيش الجديد، تؤكد أن المعارك التي كان يخوضها أورخان كان يعتمد فيها على (مجاهدي النفر) الذين كان يطلق عليهم بالتركية اسم (Akincilar) وترجمتها بالعربية

(المنذفون) وبالتعبير الاسلامي هم أهل النفرة الذين كانوا يستجيبون لنداء الجهاد تجسيدا لقوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله باموالكم وانفسكم » . فهو اذن لم يكن يمتلك جيشا نظاميا وانما كان لديه بضع مئات من فرسان عشيرته ، ومن المجاهدين ومن امراء الروم وعساكرهم الذين دخل الاسلام الى قلوبهم ، وحين كان يحتاج الى عدد اكثر مما لديه كان يطلق النفير (حى على الجهاد) فتتقاطر عليه جموع المجاهدين من كل جانب فاذا وضعت الحرب اوزارها عاد المجاهدون من حيث اتوا .

وحين بدأت تبعات مجاهدة البيزنطيين تتزايد ، كان اورخان يجد صعوبة في تجميع المقاتلين في الوقت المناسب ، اذ كان تجميعهم يستغرق وقتا طويلا ، وادرك ان الاوان قد آن للتفكير في طريقة جديدة لتجميع المجاهدين تتناسب مع ازدياد تبعات مقاومة البيزنطيين .

وحين استشار اخاه الاكبر ووزيره الاول علاء الدين ، وقواده الآخرين ، أشار عليه علاء الدين وقائده قره خليل بفكرة ايجاد جيش نظامي يكون دائم الاستعداد

والتواجد قريباً منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء .

واقترح أورخان بهذه الفكرة وبأشر من فوره بتنفيذها ، فجمع ألفاً من المجاهدين الذين تشهد لهم المعارك التي خاضوها معه بالكفاءة والشجاعة ، وكانوا خليطاً من فرسان عشيرته ، ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الاسلام قلوبهم ، وحسن اسلامهم ، ومن مجاهدي النفي الذين كانوا يسارعون لاجابة داعي الجهاد كلما انطلق .

وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع الى حيث يقيم العالم المؤمن التقى الحاج بكتاش شيخ الطريقة البكتاشية ، للطلب منه ان يدعو لهم خيراً ، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود ، ودعا لهم الله ان يبيض وجوههم ، ويجعل سيوفهم حادة قاطعة ، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الاسلام .

ثم مال تجاه أورخان فسأله ، هل اتخذت لهذا الجيش اسماً ؟ قال : لا ، قال : فليكن اسمه «يني جري» وتلفظ «يني تشري» أي الجيش الجديد .

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر في وسطها هلال ، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم «ذي الفقار» تيمناً بسيف سيدنا علي كرم الله وجهه .

ولعل في شهادة كارل بروكلمان أنصع دليل على صحة ما ذكرناه . فهو يقول في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » المخصص للحديث عن الأتراك العثمانيين وحضارتهم :

« لقد كانت حرب الحصون والمراكز المتبعة (التي خاضها أورخان) تتطلب مقدرات (قدرات) عسكرية أخرى ، والحق أن الحاجة كانت أمس ما تكون إلى إنشاء جيش من المشاة ، ولقد عمل السلطان (أورخان) ، بآداء الأمر ، على تأليف ذلك الجيش من الأتراك أنفسهم ، وكان هذا الجيش مقسماً إلى وحدات تتألف من عشرة أنفار ، ومئة نفر ، وألف نفر ، وقد اقترح قره خليل جاندولي على أورخان إحياء العرف الإسلامي القديم (الواقع أنه ليس عرفاً وإنما هو جزء من النظام المالي الإسلامي) الذي يقضي بأن يحتفظ بيت المال

بخمس الغنائم ، وبذلك ضمن للدولة مورداً يمكنها من
الانفاق على ذلك الجيش النظامي الجديد .

بيد أن كارل بروكلمان لا يلبث أن ينحرف عن
جادة الموضوعية ، ليبداً في دس السم في الدسم بإيراد
مزاعم لم ينسبها إلى أي مصدر تاريخي قديم أو حديث ،
عثماني ، أو غير عثماني ، ولم يسندها بأية أدلة تاريخية
موثقة ، محاولاً الصاق فرية اجبار النصارى على اعتناق
الاسلام بالسلطان أورخان ليتسنى له ادخالهم إلى جيشه
الجديد .

يقول بروكلمان :

ولقد حاول (أورخان) أن يستعاض عن فرقة المشاة
الأتراك بفرقة يؤلفها من النصارى الذين كانوا يألفون
هذا النوع من الخدمة العسكرية ، وإذا كان من أهم
المبادئ التي يقول بها الشرع الاسلامي أن للمسلمين
وخدمهم الحق في حمل السلاح ، فقد تعين على الدولة
أن تكرم النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد ،
على الدخول في الدين الاسلامي ، وهكذا افتتحت الدولة
هذه الحملة بأن انتزعت ألف غلام نصراني من بيوت

آبائهم ، وأكرمهم على رفض معتقدهم ، بَيِّنْ أن تطلع
هؤلاء الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص السلطان
ويخلصون له .

وقبل أن أشرع في تفنيده هذه المزاعم التي أطلقها
بروكلمان ، أود أن أشير الى أن هذه المزاعم تكاد تكون
متطابقة مع ما أورده معظم المؤرخين المسلمين كالاستاذ
محمد كرد علي ، والاستاذ محمد فريد بك المحامي ،
والدكتور علي حسون ، وغيرهم ، بل لعلي لا أكون
مغالياً ان قلت انهم جميعاً ربما استقوا ما ذكروه ، أو
على الأصح ربما نقلوا ما ذكروه عن كارل بروكلمان
نفسه ، فقد كان هذا المستشرق ، ولعله ما يزال مع
الأسف الشديد قبلة أنظار المؤرخين ، ومرجعاً أساسياً
لهم في ما يختص بتاريخ الشعوب الاسلامية .

وأعود الى مزاعم بروكلمان فأتساءل :

لماذا يستعيط أورخان عن فرقة المشاة الأتراك
المسلمين بفرقة من النصاري ؟؟

افيعقل أن أورخان ، وهو المجاهد المسلم ، الذي
لقد نفسه للجهاد في سبيل الله على خطى أبيه وجده ،

يمكن أن يرتاب في كفاءة وإخلاص وشجاعة جنوده الذين كانوا ، حتى قبل أن ينضموا إلى الجيش الجديد ، يهرعون إلى ميادين القتال ، لا يدفعهم إلى ذلك إلا حب الجهاد في سبيل الله .

أفيعقل أن أورخان يمكن أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فيتخلى عن جنوده الذين عمر الإيمان قلوبهم ، واستحوذ الإسلام على أفئدتهم ، وملك حب الجهاد في سبيل الله نفوسهم ، بجنود نصارى ليس بينهم وبين الإسلام صلة ، ولا يدركون من معاني الجهاد في سبيل الله شيئاً ؟

وكيف يتجرا كارل بروكلمان على الزعم أن أورخان أراد أن يستبدل جنوده المسلمين بجنود نصارى لأن جنود بيزنطة النصارى يالفون ذلك النوع من الخدمة العسكرية بينما أن جند الإسلام من العثمانيين الأتراك لا يالفونها ؟

لو أن بروكلمان خلع عن عينيه غشاوة الحقد على الإسلام والمسلمين ، لأدرك أن ذلك النوع من الخدمة العسكرية ، لم يبرع به أحد مثلاً برع به المسلمون ، وخاصة الأتراك العثمانيون ، وتاريخهم خير دليل .

بل مالي أذهب بعيداً ، وبين يدي شهادة أدلى بها
بروكلمان نفسه يرد فيها بنفسه على نفسه ، ويدحض
بها ما زعمه من عدم كفاءة الأتراك العثمانيين في مجال
الخدمة العسكرية .

يقول بروكلمان بالحرف الواحد :

« والواقع أن الأتراك اشتبهوا منذ خروجهم من
البوادي ، بأنهم قرسان بارعون وجريئون إلى حد
النهور » .

ثم ، كيف يتجرا بروكلمان على الخوض في أمور
شرعية إسلامية لا يملك الخوض فيها إلا مسلم توفرت
فيه شروط عديدة تؤهله للافتاء ؟

كيف يبيح بروكلمان لنفسه ، وهو النصراني ،
أن يزعم بأنه يتعين على الدولة (يعني العثمانية المسلمة)
أن تكره النصراني من الذين اختيروا لتأليف الجيش
الجديد ، على الدخول في الدين الإسلامي ، لأن الإسلام
لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح ؟

أما أن الإسلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح ،
فذلك كلمة حق أريد بها باطل ، ذلك أن الإسلام فرض

القتال على المسلمين باعتبارهم مسلمين يدينون بالولاة
للإسلام ، وليس من شأن الإسلام أن يفرض الجهاد أو
القتال على أناس لا يدينون به .

بل إن الإسلام يفرض على المسلمين أن يدافعوا
عن أرواح وأموال غير المسلمين الذين يعيشون في كنف
المسلمين ويؤدون لهم الجزية ، ومن دون أن يكلف
هؤلاء بالمشاركة في أعباء القتال ، وإن حكم الإسلام في
هذه المسألة واضح لا لبس فيه ولا غموض : « لا إكراه
في الدين قد تبين الرشيد من الغي » .

ويزعم بروكلمان ، ويا لهول ما يزعم ، أن الدولة
العثمانية افتتحت حملة الأسلمة الإجباري « بأن انتزعت
ألف غلام نصراني من بيوت آبائهم وأكرهتهم على رفض
معتقدهم ، بيد أن تطلع هؤلاء إلى مستقبل باهر جعلهم
يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له » .

كلام يهلم بعضه بعضا :

إذا ، لماذا تضطر الدولة إلى انتزاع ألف غلام
نصراني قسراً من بيوت آبائهم ، لتضمهم إلى جيش
السلطان ، بينما أن هؤلاء الغلمان ، كما يشهد بذلك

بروكلمان نفسه ، كانوا يطمحون أن يلتحقوا بجيش
السلطان ليحققوا لأنفسهم مستقبلاً باهراً ٠٠ ؟؟

بل ان ما يزعمه بروكلمان من أن أوركخان انتزع
الفلمان النصاري انتزاعاً من آبائهم يتهاوى أمام ما ذكره
الدكتور عمر عبد العزيز عمر في كتابه « محاضرات في
تاريخ الشعوب الإسلامية » ، من أن العديد من المؤرخين
النصارى يعترفون أن الآباء البيزنطيين الذين اهتموا
الاسلام ، كانوا يتشوقون الى تقديم أبنائهم عن
طواعية للسلطان العثماني ليربيهم تربية اسلامية
ويلحقهم بالجيش .

ثم ، لماذا تكره الدولة (العثمانية) هؤلاء الفلماني
على ترك معتقدهم ، بينما أن هؤلاء الفلماني أنفسهم
يسعون لتحقيق مستقبل باهر لأنفسهم من خلال تعلقهم
بالسلطان والاخلاص له ، ولا يتم ذلك الا اذا انخلعوا من
نقاء أنفسهم ، ومن غير اكراه عن معتقدهم القديم ،
واعتنقوا معتقدات سيدهم الجديد الذي سيحقق لهم
أمالهم في مستقبل باهر ٠٠ ؟

ونختتم الرد على تلك الفرية بإيراد بعض الروايات
التي وردت في مصادر تركية اذ يروي الصدر الأعظم

كامل باشا في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العثمانية
العلية » ، أن أورخان بن عثمان أراد أن يزيد عدد
جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة
البيزنطيين ، فاختار عدداً من شباب الترك وعدداً من
شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم ،
فضمهم الى الجيش واهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية
اسلامية جهادية .

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده ،
وأصبح يضم الافاً من المجاهدين في سبيل الله .

واذا علمنا أن الجهاد في سبيل الله والغيرة على
نشر الاسلام كانا الدافع الذي انطلق منه عثمان بن
أرطغرل ومن بعده ابنه أورخان ، في جميع معاركهما ضد
البيزنطيين ، لذا فان من الطبيعي أن يكون هذا الدافع
ذاته هو المنطلق الوحيد للجيش الجديد .

وتأكيداً لهذا القول ، يذكر المؤرخ التركي أحمد
رفيق في كتابه « بيوك تاريخ عمومي » أن أورخان
وعلاء الدين كانا متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل
الجيش الجديد ، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين
وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الاسلام فيها .

والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الاسلام
بعد أن يكونوا تلقوا تربية اسلامية وجهادية وترسخت
في قلوبهم مبادئ الاسلام سلوكاً وجهاداً .

خلاصة القول ، أن السلطان أورخان ، لم ينتزع
غلاماً نصرانياً واحداً من بيت أبيه ، ولم يكره غلاماً
نصرانياً واحداً على اعتناق الاسلام ، وأن كل
ما زعمه الزاعمون من أمثال كارل بروكلمان ، إنما هو
هراء ، في هراء ، ينبغي أن تمنحي آثاره من كتب تاريخنا
الاسلامي .

ولعل من المفيد أن نشير الى أن وجود عدد من
المسلمين البيزنطيين ، أمراء وعساكر ، في هذا الجيش ،
هو الذي أوجد للماكرين ثغرة ينفثون من خلالها فريتهم
وبهتانهم ، فيزعمون ما زعموه من أن العثمانيين يجبرون
أطفال النصارى على الاسلام ليشكلوا منهم جيشهم
الجديد .

الاساء ما يفترون ، كأن هؤلاء لا يعلمون أن الاسلام
يجب ما قبله ، وأن هؤلاء المسلمين البيزنطيين الذين
يصرون على تسميتهم بالنصارى لم يعودوا نصارى منذ
اللحظة التي دخل الاسلام فيها الى قلوبهم ، وكانهم

لا يعلمون أن هؤلاء المسلمين البيزنطيين قد دخلوا
الجيش الجديد ليجاهدوا في صفوفه تحت راية الاسلام
الذي آمنوا به بعد أن انخلعوا من نصرانيتهم *

وبعد ...

فإن مقتضيات الأمانة العلمية ، ومقتضيات الأخوة
الاسلامية ، تضع في عنق كل مسلم غيور ، وخاصة
المؤرخين ، والمدرسين ، والباحثين ، والاعلاميين ، أمانة
التصدي لهذه الغربة ، وتنقية مؤلفاتهم وكتاباتهم من
بهتانها .

ولقد آن الأوان لتتوقف كل يد مسلمة وكل لسان
مسلم عن ترديد هذا البهتان اللئيم ..
وتبئت كل يد تصر ، من بعد ما تبين لها الرشد
من الغي ، على ترديد هذا البهتان .

ما هي حقيقة الفتوى الشرعية المزعومة

التي تبيح للسلطين قتل أبنائهم واخوانهم ؟

ان القلب لينفطر ألماً ، حين نجد عشرات الدراسات التاريخية التي أعدها مؤرخون مسلمون ، بعضهم يشهد لهم بالغيرة على الاسلام ، قد حفلت بغفيرة خبيثة لثيمة الصفا الحاقدون بالعثمانيين المسلمين .

تلك الغفيرة اللثيمة التي لا يكاد يخلو منها الا النذر اليسير من الكتب التي تؤرخ للعثمانيين المسلمين ، والتي تزعم أن السلطين العثمانيين كانوا يملكون الحق ، بموجب فتوى شرعية اسلامية ، في قتل من يشاؤون من اخوانهم أو بني رحمتهم ، أو أقاربهم ، بحجة الحفاظ على وحدة المسلمين ، ولقطع الطريق على أية فتنة يمكن أن تبرز اذا حاول أحدهم المطالبة بالسلطة لنفسه .

وكان آخر ما وقع عليه نظري من ترديد لهذه الغفيرة ، ما جاء في مقال للاستاذ ابراهيم محمد الفحام في عدد المحرم ١٤٠٢ هـ نوفمبر ١٩٨١ م من مجلة العربي التي تصدر في الكويت ، حيث ذهب الى القول أن

السلطين العثمانيين الجدد اعتادوا عند توليهم مقاليد السلطة أن يقتلوا اخوانهم جميعاً ، ليأمنوا محاولات اغتصاب الملك ، وأن هذه الظاهرة تكررت مراراً في تاريخ الدولة العثمانية حتى شمل القتل الأخوة الأصاغر سنّاً .

ولئن كنت لا أنفي ، ولا أنكر ، وقوع العديد من حوادث التصارع على السلطة بين بعض السلطين العثمانيين وبين بعض اخوانهم ، بل وأحياناً بينهم وبين أبنائهم ، وأن بعض هذه الصراعات كانت تنتهي بقتل أحد الأطراف المتصارعة ، الا أنني أنفي ، وبكل شدة ، وبإصرار ، ما يزعمه الزاعمون عن وجود فتوى شرعية اسلامية تبيح لكل سلطان عثماني جديد أن يقتل من يشاء من اخوانه ، أو بني رحمه ، بحجة المحافظة على وحدة المسلمين ، ومنعاً لوقوع الفتنة .

اقول هذا . . واتساءل :

أليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي ، أن يقدم بين يدي أية رواية تاريخية بالبيّنات التي تدعم صحتها ، من تحديد للأسماء ، والامكنة ، والازمنة ،

وبيان سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية ، الى ان وصلت الى راويها الأخير ٠٠ ؟

ثم ، اليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي ، أن لا يكتفى بالتعميم المبهم ، بعبارات مبهمه ، في رواية تحمل تهمة خطيرة لشعب بأسره هو الشعب التركي المسلم ، بل لامة بأسرها ، هي أمة الاسلام ، بل للاسلام ذاته الذي كان العثمانيون يحملون لواء ويمثلونه آنذاك ٠٠ ؟

أين نص الفتوى الشرعية التي يزعم الزاعمون أنها تبيح للسلطان العثمانيين قتل بني رحمهم من غير أي مسوغ شرعي ٠٠ ؟

أين أسماء العلماء المسلمين الذين أفتوا بهذه الفتوى المزعومة ٠٠ ؟

وفي زمن أي من سلاطين بني عثمان على التحديد ، صدرت هذه الفتوى ٠٠ ؟

لقد قرأت بضعاً وعشرين مرجعاً عربياً ، وتركياً ، وانجليزياً ، تؤرخ للعثمانيين المسلمين ، فما وجدت من بينها مرجعاً واحداً يذكر نص الفتوى المزعومة ، أو يذكر اسماً لشيخ واحد تنسب الفتوى اليه ، بل

لقد اكتفى كل مرجع عند ذكر هذه الغرية بسردها
وكانها يقين لا يرقى اليه شك ، لا يحتاج الى توثيق .

بل لقد تضاربت تلك المراجع تضارباً فاضحاً في
تحديد اسم السلطان الذي تزعم الغرية أنه كان وراء
استصدار هذه الفتوى المزعومة ، فتارة يزعمون أنه
السلطان عثمان بن أرطغرل ، ويستندون في زعمهم الى
مقولة تزعم أن عثمان قتل عمه دوندار بناء على تلك
الفتوى ، وتارة يزعمون أنه السلطان مراد بن أورخان ،
ويستندون في زعمهم الى حادثة اعدام السلطان مراد
لولده ساوجي بعد أن ثبتت خيانتة حين حارب في صفوف
البيزنطيين ضد المسلمين ، وتارة يزعمون أن السلطان
بايزيد الأول (الصاعقة) هو الذي استصدر تلك
الفتوى ، ويستندون في ذلك الى قيامه باغتيال أخيه
الأصغر يعقوب ، بل لقد امتد لهيب البهتان الى السلطان
محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ، فزعم الزاعمون أنه
هو الذي استصدر الفتوى ، ويستندون في ذلك الى
حادثة غرق أخيه الطفل الرضيع أحمد حين غفلت عنه
مربيته أثناء عملية غسله في الحمام ، وتارة يزعمون
أن السلطان سليم الأول هو صاحب تلك الفتوى ،
وأحياناً ينسبونها الى السلطان سليمان القانوني .

وقبل أن أتحدث بشيء من التفصيل عن تلك الأحداث التي تشبث بها الزاعمون ليرفدوا بها فريتهم ، يجدر بي أن أؤكد أن الاسلام يرفض رفضاً قاطعاً هذا الهراس . ولا يقبل مطلقاً أن تهون حياة المسلم ، أي مسلم ، الى درجة تباح فيها حياته لمجرد شبهة ، أو من أجل وساوس وأوهام تستتر وراء الزعم بالغيرة على جماعة المسلمين من أن تقع في فتنة مزعومة لم يقم على وقوعها ، أو على مجرد الشك بوقوعها ، دليل شرعي .

ان طبيعة الاسلام ، واخلاق الاسلام ، وانسانية الاسلام ، ترفض رفضاً قاطعاً أن تصدر باسم الاسلام فتوى تبيح لأي انسان مهما بلغ شأنه ، أن يقتل مسلماً الا في الحالات التي نص عليها الشرع ، الثيب الزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة (المرتد) ، والقاتل عمداً (النفس بالنفس) .

ألا ، وان كل مسلم مهما كان مستوى علمه ، يعلم أن قتل النفس ، أي نفس ، محرم في شرع الله عز وجل الا ضمن الحدود التي حددها الله عز وجل .

ولقد ندد الله عز وجل أيما تنديد ، بتلك الجريمة
التي اقترفها قابيل ابن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ،
يوم طوعت له نفسه قتل أخيه هابيل فقتله .

« وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قرّبا قربانا
فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر قال لأقتلك ،
قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت اليّ يدي
لنقتلنّ ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك اني أخاف الله
رب العالمين * اني أريد أن تبوء باثمي وانمك فتكون من
أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوّعت له نفسه
قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله
غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُؤاري سوءة أخيه
قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري
سوءة أخي فأصبح من النادمين » سورة المائدة ٢٧ - ٣٠ .

بل ان الله عز وجل ، لم يكتف بالتنديد بجريمة
قابيل ، بل جعلها متعلّقاً لحكم رباني يؤكد حرمة
النفس البشرية تأكيداً قاطعاً لا لبس فيه ولا غموض :

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من
قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل

الناس جميعاً ومن أحيائها فكانما أحياء الناس جميعاً ،
سورة المائدة ٣١ .

تلك هي الحقيقة ، حقيقة تؤكد براءة الاسلام من
تلك الفتوى المزعومة ، وتؤكد رفض الاسلام لهذا
الهرء ..

فمن أين جاءت هذه الفرية اذن ؟ ..
وما هي دوافعها ، وماذا يقصد مروجوها من
ورائها ؟ ..

أما الدوافع التي تكمن وراء ترويح هذه الفرية ،
فلا أملك الا أن أقول انها نابعة من الحقد الأسود الذي
تمتلي به قلوب العديد من المؤرخين الصليبيين من أعداء
الاسلام ، ضد الاسلام والمسلمين ..

فلقد انتهر بعض المؤرخين الصليبيين الحاقدين ،
وقلدتهم في ذلك عن قصد أو عن غير قصد ، بعض المؤرخين
الذين يحملون أسماء اسلامية ، وقوع بعض حوادث
الصراع الدموي على السلطة في الدولة العثمانية ، وهو
أمر لم تسلم عنه أمة من الأمم على مدار التاريخ ،
فوجدوا في تلك الأحداث متنفساً ليتغشوا من خلاله

أحقادهم الدفينة ضد الاسلام والمسلمين ، فوجهوا
سهام افتراءاتهم ضد العثمانيين المسلمين ، وهم في حقيقة
الأمر يوجهونها الى الاسلام الذي كان العثمانيون يمثلونه
آنذاك .

بل لقد اشتط الحقد بهؤلاء الحاقدين ، فطفقوا
يتناقلون بعض الحوادث العادية ، فيحرقونها عن
حقيقتها ، وينسجون من حولها الأقاويل الكاذبة ،
ليرفدوا بها افتراءاتهم ضد الاسلام والمسلمين .

القول هذا ، وبين يدي أكثر من دليل :

وأبدا بحادثة مقتل الأمير دوندار عم السلطان
عثمان ، وهي حادثة أوردتها المؤرخ التركي المعاصر
اسماعيل حامي دنشمنند في كتابه « موسوعة التاريخ
العثماني » الذي ألفه في عام ١٩٤٥ ، أي في الوقت
الذي كانت فيه أنواء الردة الأتاتوركية في أصخب
حالات صوبها على تركيا ، بكل ما تحمله من مشاعر
العداء للعثمانيين المسلمين ، وزعم فيها أن عثمان ابن
أرطغرل استشار عمه دوندار البالغ من العمر تسعين
عاماً ، في أمر عزمه على محاربة البيزنطيين ، فعارضه

عنه في الرأي ، فلم يتحمل عثمان معارضة عمه ، فقام
باعدائه بيده برمية بسهم انتقاماً منه بسبب معارضته
له .

ولئن كانت هذه الرواية بنصها هذا من الضعف
بحيث خلت منها معظم المراجع التي تؤرخ لعثمان بن
أرطغرل ، ولئن كان من أدلة ضعفها أن اسماعيل
حامي دنشمند لم يوثق روايته لهذه الحادثة بإيراد اسم
المراجع ، أو اسم المؤرخ الذي نقل عنه الرواية ، فإن
الحاقدين على العثمانيين المسلمين ، بل على الاسلام الذي
يمثله العثمانيون ، تلقفوا هذه الحادثة ، ونسجوا من
حولها من سواد حقدهم ما لا تحتمل ، فزعموا ، وبشس
ما زعموا ، أن عثمان قتل عمه دوندار وبناء على فتوى
شرعية تبيح له قتله خشية أن يزاحمه على السلطنة ،
ما قد يؤدي الى وقوع الفتنة بين المسلمين .

ولئن كان من الانصاف أن نشير الى أن ما نقلته
المراجع الموثوقة التي أدرخت لعثمان بن أرطغرل ، عن
شدة تعلق عثمان بأحكام الشريعة الاسلامية ، وعن
التزامه الصادق بالاسلام ، عبادة ، وخلقاً ، وتواضعاً ،
وما نقلته عن توقيره الشديد لعمه الشيخ الكبير دوندار ،

يجعلنا نستبعد تصديق مقولة أن عثمان قد قتل عمه
لمجرد معارضة له في الرأي ، ويجعلنا على يقين أنه ما
فعل ذلك الا لسبب جليل ، أكبر من مجرد الاختلاف في
الرأي .

ويرسخ قناعتنا ما أورده المؤرخ التركي المعاصر
قادر مصر أوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » المطبوع
في استانبول في عام ١٩٧٩ ، في وقت كانت المشاعر
الاسلامية في تركيا تشهد فيه شيئا من اشكال الحرية
التي تستطيع معها أن تعبر عن حقيقة رفضها لمشاعر
العداء التي حاولت الردة الأناطورية ترسيخها ضد
العثمانيين المسلمين في نفوس الأتراك .

ففي كتابه ذلك ، ينقل قادر مصر أوغلو ، عن
المؤرخ التركي خير الله أفندي الذي عاصر عثمان بن
أرطغرل ، أن دوندار كان طرفا في مؤامرة اتفق على
تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة «بيله جك» البيزنطي ،
تستهدف اغتيال عثمان ، تمهيدا لوثوب دوندار الى
الزعامة خلفا لعثمان ، فلما انفضح أمر المؤامرة ، أصر
عثمان ، وهو الحريص على تطبيق أحكام الشريعة
الاسلامية ، على تنفيذ حكم الله في عمه جزاء اقترافه

لجريمة موالاته أعداء الاسلام ، والتآمر معهم ضد جماعة
المسلمين .

وتلك لعمرى ، نقطة بيضاء ، ووقفه سماء شامخة ،
تسجل في حسنات عثمان بن أرطغرل ، اذ أكد من
خلال حرصه على تطبيق شرع الله في عمه ، على صدق
التزامه بالاسلام ، وصدق خضوعه لحكمه ، وصدق
تفضيله لوشيجة العقيدة ، وارتباطه بها ، فوق وشيجة
الدم والقرابة .

تلك هي حقيقة قصة السلطان عثمان بن أرطغرل
مع عمه دوندار ، تنهاوى أمامها أباطيل الحاقدين ،
وارجاف المرجفين .

أما قصة السلطان مراد بن أورخان مع ولده الأمير
ساوجي ، فهي أيضاً علامة بارزة تؤكد صدق التزام
مراد بالاسلام ، وصدق خضوعه لأحكام شريعته .

ففي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه أشرس
الحمالات المتلاحقة التي تمثلت في العديد من الأحلاف
الصليبية المقدسة التي تجتمع تحت الويتها ملوك
وأمراء المجر والصرب والبُلغار والارناؤوط (البانيا) ،

بمباركة من بابا روما أوربيان الخامس ، وبترخيص
سافر منه (٧٦٦هـ - ١٣٦٥م) ، وفي الوقت الذي كان
فيه السلطان مراد يواجه فيه خطراً آخر تمثل في قيام
الأمير الإيطالي اميديو بتجميع جيش من الإيطاليين تحت
شعار الانتقام للصليب من العثمانيين المسلمين
(٧٧٠هـ - ١٣٦٨م) ، وفي الوقت الذي ازداد فيه الخطر
ضد الدولة العثمانية المسلمة ، بقيام امبراطور بيزنطية
يوانيس الخامس بزيارة روما في عام (٧٧١هـ - ١٣٦٩م)
مستنجداً بالبابا ضد العثمانيين المسلمين ، ومعلنًا تحوله
عن مذهبه الأرثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي في محاولة
لاسترضاء بابا روما لاقتناعه بمده بالنجدة التي يطلبها
ضد العثمانيين المسلمين .

وفي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه خطراً
داخلاً جديداً تمثل في نجاح البابا بتجنيد أكثر من
ستين ألف مقاتل صليبي بقيادة ملك بلاد الصرب
الجديد ووقاشين (٧٧٣هـ - ١٣٧٠م) .

في ذلك الوقت الذي كان السلطان مراد لا يكاد
ينجح في التغلب على إحدى مكائد الأعداء ، حتى يواجه
مكيدة أخرى ، كان ولده الأمير سلاجي يتآمر سرّاً مع

الأمير البيزنطي أندرونيقوس ، الابن الثاني للامبراطور
 يوانيس ، لتدبير مؤامرة للاطاحة بالسلطان مراد ،
 وتسليم السلطة للأمير ساوجي ، وسرعان ما انتقلت
 المؤامرة من مرحلة التدبير ، الى مرحلة التنفيذ ، فسار
 الأميران ساوجي واندرونيقوس على رأس جيش كانت
 غالبية جنوده من البيزنطيين ، وتمركزا بجيشهما في
 منطقة لا تبعد كثيراً عن القسطنطينية ، فسارع السلطان
 مراد لملاقتهما ، فلما كاد يقترب منهما حتى خارت
 معنويات المتآمرين ففر الجنود البيزنطيون من أنصار
 اندرونيقوس ، ولجأ الجنود العثمانيون من أنصار الأمير
 ساوجي الى جيش أبيه السلطان مراد ، فأصبح ساوجي
 واندرونيقوس من غير جيش ، فلم يجدا أمامها مفرأ
 من الهرب ، ففرا الى مدينة «ديموقه» ، فلحق بهما
 السلطان مراد ، واضطرها الى الاستسلام .

وجمع السلطان نخبة من القادة والعلماء والقضاة
 لمحاسبة ولده ساوجي ، فحكموا عليه بالموت جزاء خروجه
 عن طاعة ولي الأمر ، وجزاء موالاته للكفار اعداء الاسلام
 والتحالف معهم قولاً وفعلًا في محاربة المسلمين .

وأمر السلطان مراد بتنفيذ حكم الشرع في ولده ،
مسجلاً بذلك صدق ولائه لحكم الشريعة ، وصدق
التزامه بالاسلام ، ولكاني به وهو يفعل ذلك ، كان
يستشعر قوله تعالى عز وجل :

« لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون
من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو
إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان
وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك
حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » سورة المجادلة
آية ٢٢ .

أما اندرونيقوس فلم يشأ مراد أن يقتله ، وكان
بمقدوره أن يفعل ذلك ، دون أن يجزؤ أحد على مجرد
معاقبته ، بله الاعتراض عليه ، ولكنه آثر أن يترك
أمره لأبيه ، فأرسله إليه ، ففقا عينيه ، ثم نفاه خارج
القسطنطينية وبقي منفياً حتى مات ، وما أحسب إلا
أن الامبراطور قد فعل ما فعل بآبائه اندرونيقوس خوفاً
من السلطان مراد ، وليس عن قناعة .

ولقد كان من الطبيعي أن يستغل الحاقدون حادثة
مقتل ساوجي ، فتلقفوها بلبهة حاقدة ، وطفقوا ينسجون
من حولها ، كدأبهم في كل حادثة مماثلة ، الاقاويل
والافتراءات ليرفدوا من خلالها فريتهم عن الفتوى
الشرعية المزعومة التي تبيح للسلطان العثماني المسلم
قتل من يشاء من بني رحمه ، الا ساء ما يصفون .

وكان من الطبيعي أن يشتط الحق بآعداء الاسلام ،
فينفثوا حقدهم ضد السلطان مراد ، ويتهمونه بالوحشية
وتحجر عاطفة الأبوة في قلبه ، وما دروا أن صدق
الالتزام بالاسلام يجعل وشيجة العقيدة فوق كل
وشيجة ، وصلوات الله وسلامه على نبينا محمد الذي
علم المسلمين هذه الحقيقة الايمانية ، حين قال « والله
لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتم يدها » .

والتقل الى حادثة قتل السلطان بايزيد بن مراد
(الصاعقة) لآخيه الأصغر يعقوب ، فلا أجد غضاضة في
تأكيد وقوعها ، ولا أجد حاجة الى محاولة تبريرها ،
فقد استهل بايزيد عهده فعلا بارتكاب جريمة بشعة
حين أقدم على قتل أخيه الصغير يعقوب ، بتحريض من
بعض أنصاره الذين طفقوا يوغرون صدره ضد أخيه ،

الذي كان شجاعاً ، قوي الشخصية ، ووجدت وشاية
المغرضين هوى في نفس بايزيد الذي خشي أن يزاحمه
يعقوب على السلطنة ، واشتطت به وسأوسه حين أخذ
الوشاة يذكرونه بأن جده أورخان بن عثمان ولي
السلطنة رغم كونه الأصغر سناً من أخيه الأمير علا
الدين .

هنالك تلقف الحاقدون على الاسلام تلك الحادثة ،
فوجدوا فيها متنفساً جديداً لأحقادهم وساعدتهم على
ذلك أن جريمة قتل بايزيد لأخيه قد تمت غيلة وبوحشية
فطلقوا يرددون فريتهم التي تزعم أن بايزيد قتل أخاه
يعقوب بناء على تلك الفتوى الشرعية المزعومة .

ولئن كنت لا أنكر أن بايزيد قد ارتكب جريمة
البشعة فعلاً ، بعد أن غلبه هواء ، وزينت له وسأوسه
أن يقترب تلك الجريمة ، وطوعت له نفسه قتل أخيه
فقتله ، فأنني أندفع بكل عزم لأؤكد براءة الاسلام من
تلك الجريمة ، واستنكاره لها ، فالجريمة يتحمل وزرها
بايزيد وحده ، وليس من العدل ، ولا من الانصاف ،
ولا من المنطق أن يزوج بالاسلام في عملية تبريرها .

وينبغي أن أشير هنا إلى أن الجفاء كان مستحكما
بين العلماء والسلاطان بايزيد ، لدرجة أستبعد معها أن
يجد بايزيد عالما واحداً يستجيب له فيصدر تلك الفتوى
التي ينسب استصدارها في بعض المراجع إلى بايزيد .

ولقد بلغ من حدة ذلك الجفاء ، أن العالم المؤمن
القاضي شمس الدين محمد حمزة الفناري ، رد شهادة
السلاطان بايزيد في إحدى القضايا ، فلما راجعه بايزيد
في ذلك ، أجابه القاضي المؤمن بأنه رد شهادته لأنه
تارك لصلاة الجماعة .

بل لقد بلغ الجفاء بين العلماء والسلاطان بايزيد
إلى حد أقرب ما يكون إلى القطيعة بسبب استنكارهم
لوقوعه تحت سيطرة وتأثير زوجته النصرانية الأميرة
أوليفيرا شقيقة ملك الصرب لازار ، وتماديته بتحريض
منها على ادمان شرب الخمر ، وإقامة حفلات اللهو ،
وبذكر المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامى دنشمنند
في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، أن بايزيد
ذهب ليتفقد العمال في بناء مسجد «أولو جامع» في
بورصة وكان قد أوشك بناؤه على الانتهاء ، فالتقى
خلال تجواله في المسجد بالعالم المؤمن شمس الدين

الفناري ، فسأله على مسمع من الناس عن رأيه في بناء
المسجد ، وهل يرى في البناء أي نقص ؟ .. فأجاب
العالم المؤمن بجواب ساخر يحمل بين طياته مشاعر
عدم الرضى عن سيرة بايزيد المنافية للإسلام ، فقال له :

بالنسبة لنا نحن المسلمين ، فأننا لا نجد أي نقص
في بناء المسجد ، أما بالنسبة اليك يا بايزيد ، فأنني
أخشى أن تكون قد نسيت أن تضع خزانة تحفظ بها
خمورك بجانب المحراب .

أفيعقل بعد هذا ، أن يجد بايزيد ، عالماً واحداً
يغشى له بقتل أخيه من غير مسوغ شرعي ؟ ..

ولقد وجد الحاقدون رافداً جديداً يدعمون به
فريتهم فيما وقع من صراع دموي بين أبناء بايزيد
الصاعقة ، حين قتل محمد بن بايزيد أخوته عيسى ،
ثم سليمان ، ثم موسى لينفرد بحكم السلطنة .

ولئن اشتط المفرضون في حقدهم فزعموا أن محمد
ابن بايزيد قد قتل أخوته بموجب تلك الفتوى الشرعية
المزعومة ، فإن الحقائق التاريخية تؤكد أن ما جرى
بين أبناء بايزيد من اقتتال دموي ، كان اقتتالاً مصلحياً

من أجل الطموحات الشخصية لكل واحد من أبناء بايزيد
للجلوس على عرش السلطنة ، وليس من العدل ، ولا
من الانصاف ، أن يزج بالاسلام في هذا المقام .

وينبغي أن أشير الى أن شهوة الجلوس على عرش
السلطنة قد أشتتت بأبناء بايزيد لدرجة لم يجدوا معها
غضاضة في الاستعانة بأعداء الاسلام من البيزنطيين
ضد بعضهم البعض ، كما فعل سليمان بن بايزيد حين
تنازل لملك الروم ايمانويل الثاني عن مدينة سلانيك
وسواحل البحر الأسود مقابل الوقوف الى جانبه ضد
أخويه الآخرين عيسى ومحمد .

هذا ، وينبغي أن أشير الى أن بعض المؤرخين
المغرضين ، زعموا أن الفتوى الشرعية المزعومة التي
تبيح للسلطان قتل بني رحمه من غير مسوغ شرعي ،
هي تلك الفتوى التي أصدرها الشيخ سعيد أحد تلاميذ
الشيخ التفتازاني ، والتي ورد نصها على النحو التالي :
« من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد ، يريد أن
يشق عصاكم ، ويفرق جمعكم ، فاقتلوه » .

والحقيقة أن هذه الفتوى قد صدرت عام ٨٢٣ هـ -
 ١٤٢٠ م . كما يورد المؤرخ التركي عبد القادر دادة
 أوغلو في كتابه « التاريخ العثماني المصور » ضد أحد
 قضاة العسكر وهو الشيخ بدر الدين والذي ثار على
 السلطان . وتزعم حركة ثورية تنادي بإلغاء التفرقة
 بين الأديان ، وبتوزيع الأموال سواسية بين الناس ،
 وقد اندس في حركة الشيخ بدر الدين ، كما يروي
 الأستاذ محمد فريد في كتابه « تاريخ الدولة العلية
 العثمانية » عدد من اليهود والنصارى ، وعندما وقع
 بدر الدين في الأسر بعد معركة حامية الوطيس حوكم
 أمام هيئة من كبار العلماء والقضاة ، فصدرت بحقه
 الفتوى بنصها الذي أورده أنفا ، وبتوقيع الشيخ
 سعيد ، ويروي المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي
 دنشمن في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » أن
 الشيخ بدر الدين قد وقع بنفسه أيضاً على الفتوى
 اعترافاً بذنبه ، وتم اعدامه شنقاً على ملا من الناس في
 السوق الرئيسي في مدينة سراز .

ولقد وجد المفرضون مبرراً آخر لرفض بهتانهم
 بخصوص الفتوى المزعومة ، في حادثة اعدام السلطان
 مراد الثاني لعمه مصطفى بن بايزيد .

وحقيقة الأمر أن مصطفى بن بايزيد كان قد اختفى
 وانقطعت أخباره بعد هزيمة بايزيد الصاعقة في معركة
 أنقرة أمام تيمورلنك ، ثم ظهر فجأة في زمن أخيه
 السلطان محمد جلبي بن بايزيد ، مطالباً بالسلطنة
 لنفسه ، واستنجد بأعداء الإسلام من البيزنطيين فأمدوه
 بالمساعدات ، وأوعزوا لأمير بلاد الفلاخ بأمداده بجيش
 كبير ، ولكن مصطفى فشل في تحقيق أي نجاح ، واضطر
 إلى اللجوء إلى سلانيك التي كان الأمير سليمان بن بايزيد
 قد أعادها إلى السيطرة البيزنطية مقابل وعدهم له
 بمساعدته ضد أخوته كما أسلفت قبل قليل ، واتفق
 السلطان محمد جلبي مع امبراطور بيزنطية على إبقاء
 أخيه مصطفى في سلانيك تحت مراقبة الامبراطور ،
 مقابل مبلغ من المال ، واستمر الأمر على هذا النحو إلى
 أن ولي السلطنة السلطان مراد الثاني ابن محمد جلبي ،
 فتحرش به الامبراطور إيمانويل الثاني في محاولة منه
 لإعادة هيبة الامبراطورية ، وطلب منه عقد معاهدة
 يتعهد مراد بموجبها بعدم القيام بأية محاولة لغزو
 القسطنطينية ، فلما وقف السلطان مراد موقفاً حازماً
 في وجه إيمانويل ، ورفض مطالبه ، عمد إيمانويل إلى

استدعاء الأمير مصطفى وأمه بعشر سفن حربية مدججة
 بالجنود والسلاح ، فتمكن مصطفى من الاستيلاء على
 مدينة وميناء غاليبولي ، ثم تمكن من التغلب على الجيش
 العثماني الذي أرسله السلطان مراد لمحاربته بقيادة
 وزيره بايزيد باشا ، فسار السلطان مراد الثاني بنفسه
 لملاقاة عمه مصطفى الذي لم يلبث أن وقع في أسر مراد ،
 ليواجه عقوبة الاعدام شنقاً ، جزاء خيائته لله ولرسوله
 وللمؤمنين ، وهل من خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أعظم
 من موالة الكافرين والاستعانة بجنودهم واسطولهم في
 حرب المسلمين .

أفان تَقْدُ مراد حكم الله في عمه مصطفى ، جزاء
 موالاته للكفار ضد المسلمين ، وجزاء انارته الفتنة في
 جماعة المسلمين ، ينبري الحاقدون ليزعموا ، وبئس
 ما يزعمون ، أن الاسلام يبيح للسلطان قتل بني رحمه
 كيفما يشاء . . . ؟

فرية باطلة . . وبهتان عظيم

واجبني هنا مضطراً للتوقف وقفة أرد بها فرية
 خبيثة ، ودنيئة ، الصقت بالسلطان محمد الفاتح ، أنعم

به من فاتح ، فقد درج بعض المؤرخين ، وهم يؤرخون
لحياة محمد الفاتح على الزعم بأنه قام بقتل أخيه
الرضيع أحمد جلبي بعد أيام قليلة من تسلمه مسؤولية
السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان مراد ، خشية أن
يزاحمه على السلطنة ، ومن المؤسف أن هذا الزعم لم
يقتصر على المؤرخين غير المسلمين ، وإنما وقع في
أبواله عدد من المؤرخين المسلمين .

ولئن كانت هذه الغرية التي ألصقت بالسلطان
محمد الفاتح تكاد تكون أوهن من بيت العنكبوت ، إلا
أنني أجد من الواجب التوقف عندها ، وتقنيدها ، لكي
لا يبقى من بعد ذلك عذر لأي مؤرخ يحترم نفسه ،
ويحترم شرف الكلمة التي يؤرخ بها ، أن يستمر في
ترديد هذا البهتان العظيم ضد السلطان محمد الفاتح ،
أنعم به من فاتح .

ونبدأ بمناقشة الدافع الذي زعم المفترون أن
السلطان محمد الفاتح قد قتل أخاه الرضيع أحمد
بسببه ، والذي يزعمون أنه كان بسبب خشية السلطان
محمد الفاتح من قيام أخيه الرضيع بمناقبته على
السلطنة . . !

تالله ، ما سمعت كلاماً بمثل هذا السخف في تبرير
عملية قتل طفل رضيع ٠٠ !

افهل يعقل ان سلطانا ولي السلطنة في عهد ابيه ،
وتحت كنفه ، ثم وليها من بعد وفاة ابيه ، وقد اشتد
ساعده ، ونضجت خبرته ، والتفت الامة من حوله
تحوطه بالحب والطاعة ، افيعقل ان هذا السلطان يغار
من اخ له رضيع ، فيخشى ان ينارعه على السلطنة ٠٠ ؟
وكيف يتسنى لطفل رضيع ، وانى له ، ان ينارعه على
السلطنة ، وهو الرضيع الذي ان تأخرت امه عليه
بالحليب يوماً مات جوعاً .

ثم ، هل يصدق انسان سوي عاقل ، ان محمداً
الفاتح ، ذلك الشاب المؤمن الذي تربى على مائدة
القرآن ، على يد خيرة علماء عصره الشيخ أحمد بن
اسماعيل الكوراني الذي كان الفاتح يسميه « ابا
حنيفة زمانه » ، والشيخ تمجيد أوغلو ، والشيخ محمد
جلبي زادة ، والشيخ مولا اياس ، والشيخ الفوراني ،
والشيخ سراج الدين الحلبي ، والشيخ آق شمس
الدين ، يمكن ان يفكر بمثل هذا الامر الفظيع ٠٠٠ ؟

بل ، لنفرض جدلاً أن محمداً الفاتح كان يوجس
خيفة أن ينازعه أخوه الرضيع على السلطنة ، أفما كان
يستطيع أن يحتويه تحت كنفه ، ويربيه على الاخلاص
له ، بدل أن يقتله ؟ . . . ؟

ولماذا يستبق محمد الفاتح الأمور فيقتل أخاه
الرضيع ، وقد كان بإمكانه أن ينتظر وهو مطمئن
البال بضعة عشر عاماً حتى يكبر أخوه ، فيتحقق من
لوازمه ونواياه . . . ؟ من هنا ، نستطيع أن نتبين
انتهاء المصلحة الشخصية للسلطان محمد الفاتح من
قتل أخيه .

ولننتقل الآن الى مناقشة الطريقة التي تمت بها
عملية القتل المزعومة ، فقد زعم مروجو هذه الفرية أن
السلطان محمد الفاتح أرسل أحد قواده واسمه علي
بك الى جناح النساء لقتل أخيه الرضيع ، فلما علم علي
بك أن الطفل موجود في حمام النساء حيث تقوم مربيته
بغسله ، اقتحم الحمام وأمسك بالطفل الرضيع وغطسه
تحت الماء حتى مات مختنقاً غرقاً .
أي شخص هذا . . . وأي مرء . . . ؟

وهل يصدق عاقل أن محمداً الفاتح ، وهو الذكي
المحنك ، يقدم على قتل أخيه الرضيع بهذه الصورة
المكشوفة الساذجة ؟

وهل يصدق عاقل أن محمداً الفاتح كان عاجزاً
عن تكليف إحدى النساء ، كزوجته ، أو إحدى
خادماتها ، بتنفيذ عملية القتل من دون إثارة انتباه
أحد ، بدل أن يرسل رجلاً إلى جناح النساء وهو أمر
غير مألوف ، بله أن يسمح بأن يقتحم هذا الرجل حمام
النساء ، حيث يكن فيه متحلات من حجابهن ، ومتخففات
من كثير ملابسهن ، وفي ذلك ما فيه من خروج مستهجن
عن المألوف ، من شأنه لو تحقق فعلاً أن يثير من هياج
النساء ، وضجيجهن ، وصخبهن ، ما يضطر ذلك
الرجل إلى الفرار قبل أن ينفذ مآربه ، مهما بلغت به
الجرأة والنذالة ؟؟ إذن ، ما هي حقيقة هذه الفرية ؟؟

الحقيقة هي أن المربية التي كان موكلاً إليها أمر
العناية بالطفل الرضيع أحمد ، انشغلت لبعض شأنها
بينما كانت تفسله ، فوقع في حوض الماء ، فمات مختنقاً
غرقاً قبل أن تتداركه الأيدي التي امتدت لانقاذه بعد
فوات الأوان .

وما كاد خبر غرق الطفل الرضيع أحمد يسري بين
الناس ، حتى وجد فيه الحاقدون متنفساً يبتون من
خلاله حقدهم ، فطفقوا يشيعون بأن السلطان قتل
أخاه الرضيع خشية أن يزاحمه على السلطنة ، وتصادف
بعد ذلك بأيام قليلة أن أحد ضباط الجيش واسمه علي
بك ارتكب جريمة عقابها الاعدام ، فلما أعدم ، وجد
الحاقدون مادة جديدة خيل اليهم أنها تدعم بهتانهم ،
فطفقوا يزعمون أن علي بك هو الذي أغرق الطفل
الرضيع أحمد ، وأن السلطان محمد الفاتح خشي أن
يفشي هذا الرجل سره ، فقتله ، ومن هنا جاءت
الغربة على النحو الذي أشرت اليه ، وينبغي الإشارة
إلى أن ادوارد سي كريسبي يتبنى هذا الزعم في كتابه
« تاريخ العثمانيين الاتراك » المطبوع بالانجليزية في
بيروت في عام ١٩٦١ ، ويدعي أن السلطان الفاتح أقدم
على قتل الضابط علي بك متهماً إياه بقتل أخيه الرضيع
دون أن يكون للسلطان علم بذلك .

الأساء ما يفترون وتبت يدا كل من يجري قلمه ،
أو لسانه بهذا البهتان اللئيم .

ولو أن الحاقدين توقفوا عند هذه الفرية وحذروا
لهان الأمر ، ولكنهم ما برحوا أن بدأوا ينسجون من
حولها المزيد من الافتراءات ، فزعموا ، وبئس ما زعموا ،
أن محمداً الفاتح ، أنعم به من فاتح ، لم يكتف بقتل
أخيه ، بل أصدر قانوناً ترفده فتوى شرعية مزعومة ،
أعطى للسلطان الحق في قتل من يشاء من أخوته
وأبنائه وأبناء عمومته وخؤولته ، لقطع الطريق على أي
منهم أن ينافسه على السلطنة .

ولقد كنت في موضع آخر من هذا الكتاب قد فنت
هذه الفرية ، بيد أن بشاعة هذه الفرية وخبيثتها تجعلني
أعود من جديد لتأكيد بطلانها ، ذلك أن القانون الذي
أصدره السلطان محمد الفاتح ، ودعمته فتوى شرعية
من علماء المسلمين ، لم يكن على هذا النحو الذي يزعمه
المفرضون ، وإنما كان تأكيداً لحكم الإسلام في كل من
يخرج عن طاعة ولسي الأمر ، أو يوالي الكافرين ضد
المسلمين ، أو يثير الفتنة بين المسلمين .

ولقد أوضح المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي
دنشمندي في كتابه ، موسوعة التاريخ العثماني ، الدافع

الذي جعل السلطان محمد الفاتح يصدر هذا القانون
فقال :

حين وجد السلطان محمد الفاتح أن أكبر خطر كان
يهدد الدولة العثمانية في الفترة التي سبقت توليه
مقاليد السلطنة ، نجم عن تكرار حوادث الانشقاق التي
كانت تقع بين الأمراء العثمانيين والتي كانت تصل في
أكثر الأحيان إلى درجة الاقتتال ، وتؤدي إلى انقسام
الدولة إلى فريقين أو أكثر ، مما كان يؤثر على وحدة
الدولة ويفري خصوم الإسلام بها ، فقد رأى السلطان
محمد الفاتح ، أن يضع قانوناً أسماه « قانون حفظ النظام
للعريّة » ، أكد بموجبه أن الموت سيكون مصير كل
من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان ويتعاون مع
أعداء الإسلام ضد المسلمين .

ويردف اسماعيل حامي دنشمندي ، أن هذا القانون
كان سبباً في انحسار ، أو على الأقل في تقليص حوادث
العصيان المسلح ، التي كادت أن تصبح أمراً شائعاً
في الدولة العثمانية قبل صدور هذا القانون .

وان المرء لتتملكه الدهشة ، حين يرى ان كل
دول الدنيا ، قديمها وحديثها ، لا تخلو قوانينها من
مثل هذا القانون ، ومع ذلك فلا تجد أحداً يعترض
عليها أو يشوه مقاصدها كما يفعل المفرضون تجاه
الدولة العثمانية ... !

ما هي حقيقة القرية التي تزعم أن الأتراك
العثمانيين لم يكونوا أمة دعوة ، وهداية ،
وحضارة ، وإنما كانوا أمة حرب وقتال ..

يشتهد الاسي في قلب المسلم حين يرى أن معظم
أجيالنا المسلمة ما فتئت تقرا في مناهج التاريخ في معظم
مدارس ، ومعاهد ، وجامعات وطننا العربي والاسلامي ،
أن العثمانيين الاتراك لم يكونوا أمة دعوة ، وعداية ،
وحضارة ، وإنما كانوا مجرد مقاتلين تحجرت العواطف
الانسانية في قلوبهم ، وأعمت ابصارهم شهوة القتل
والتمهير ، فطفقوا يقتلون ، وينهبون ، ويشردون الامم
والشعوب ، من غير أن يردعهم وازع من شعور انساني ،
أو ضمير ، أو دين .

فأما أن الاتراك العثمانيين كانوا أمة قتال وحرب ،
فتلك حقيقة لا ننكرها ، ولا نماري فيها ، فقد اعترف
ببسالة الاتراك الاعداء قبل الأصدقاء ، قديماً وحديثاً .

وأما أنهم كانوا يمتهنون القتال ارباباً ، والفساد
في الارض ، فذلك هو البهتان العظيم الذي ننكره ،
وننفيه ، ونبرى الاتراك العثمانيين منه .

لقد انطلق الاتراك العثمانيون في جميع حروبهم
الهجومية والدفاعية من منطلق اسلامي بحت ، فقد
كانوا كما ذكرنا في صفحات سابقة من هذا الكتاب
يعتبرون أن نشر دين الله في الأرض ، وهداية الناس
اليه ، هو من أهم واجباتهم ، ولقد حرصوا على أن
يقوموا بهذا الواجب ضمن الحدود التي وضعها الاسلام،
فكانوا يخبرون البيزنطيين بين الاسلام أو الجزية ، أو
الحرب ، ولكن اصرار البيزنطيين على الحرب كان يدفع
العثمانيين اليها دفعا ، لا حبا في القتال من أجل القتال،
وانما جهادا في سبيل الله عز وجل نشرأ لدينه واعلاء
لكلمته .

وانا لنلمس هذا الفهم الاسلامي الصافي لمفهوم
القتال عند العثمانيين الاتراك من خلال مطالعتنا لرسالة
البشرى التي بعث بها السلطان محمد الفاتح للزعامات
الاسلامية المعاصرة له ، يشرهم فيها بفتح القسطنطينية،
ففي رسالته الى سلطان دولة المماليك الشراكسة في

عصر السلطان اينال شاه ، التي تسلمها في الثالث
والعشرين من شهر شوال من عام ٨٥٧ هـ وفق السابع
والعشرين من شهر تشرين الاول من عام ١٤٥٣ م ،
كما يروي المؤرخ المصري ابن تغري بردي في كتابه
« حوادث الدهور » ، يقول السلطان الفاتح .

ان من احسن سنن اسلافنا ، أنهم مجاهدون في
سبيل الله عز وجل ، ولا يخافون لومة لائم ، واننا على
هذه السنة قائمون ، وعلى تلك الامنية دائمون ،
متمثلين بقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ،
ومستمسكين بهدي نبينا صلى الله عليه وسلم « من
الجهنم قدماء في سبيل الله حرمه الله على النار » .

ويستطرد السلطان الفاتح في رسالته قائلا :

ولهذا فقد هممتنا هذا العام ، معتصمين بحبل الله
ذي الجلال والاکرام ، ومستمسكين بحبل الملك العلام،
ال اداء فرض الغزاة (من الغزو) الذي فرضه علينا
الاسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين يلونكم
من الكفار » ، وقد جهزنا عساكر المجاهدين من البر
والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً ، وبقيت لمدة
طويلة وسط الممالك الاسلامية تباهى بكفرها فخراً ،

ونلمس الروح الاسلامية الصادقة في اقبال الاتراك
العثمانيين على القتال ، ونحن نطالع نص دعاء السلطان
مراد بن أورخان في الليلة التي سبقت معركته الحاسمة
ضد التحالف الصليبي في منطقة « قوصوه » ، والذي
نقله المؤرخ التركي خوجا سعد الدين في كتابه « تاريخ
التواريخ » ، والذي نقتبس منه هذه العبارات :

« يا الهي ، انى أقسم بعزتك وجلالك اننى لا
أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية ، ولكننى أبتغي
رضاك ، ولا شيء غير رضاك . »

يا الهي ، لقد شرفتنى بأن هديتنى الى طريق الجهاد
في سبيلك ، فزدنى تشريفاً بالموت في سبيلك . »



أما في حروبهم الدفاعية ، فقد كان العثمانيون
الأتراك ينطلقون لخوضها من منطلق اسلامي واضح ،
استوحوه من قول الله عز وجل :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً
فلا تولوهم الأدبار . »

ان الذين يتهمون الاتراك العثمانيين بأنهم كانوا
أمة قتال وحرب ، وأنهم لم يتركوا وراءهم في البلدان
التي رفعوا رايتهم فوقها أية بصمات حضارية ، بل
أزعوها بفصص الطغيان والظلم والحرمان ، يتناسون،
وهم في حماة حقدهم يعمهون ، أن العثمانيين الاتراك
كانوا يواجهون ركام قرون طويلة من الاحقاد الصليبية
التي لم ينقطع أوارها ، ولم تغتر مؤامراتها ، طوال
فترة حكم الدولة العثمانية .

واني لأعجب ، كيف لا يكون الاتراك العثمانيون
أمة قتال وحرب ، وهم الذين كانوا يواجهون أحقاداً
صليبية أقضى مضاجعها اعتداؤهم للاسلام ، وزلزل
الأرض من تحت أقدامها ، وبلغ من شدة هذه الاحقاد
أن ينطلق لسان أحد سدنتها المستشرق الالماني فولدكه،
معلناً في مقال نشره في مجلة « دار اسلام » الالمانية في عام
١٩٢٤ ، أن دخول الاتراك في الاسلام كان أكبر نكبة
في التاريخ .

وينقل أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على
كتاب حاضر العالم الاسلامي ، عن المؤرخ دجوفارا ،

وهو وزير روماني سابق ، قوله في كتاب « مئة مشروع
لتقسيم تركيا » :

ان أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الاوروبيون
للأتراك ترجع الى العداوة الشديدة الذي يكنه النصارى
للاسلام .

وقد بلغ الحقد مداه في قلب راهب دومينيكاني
اسمه غليوم دادان ، فآلف كتاباً في عام ١٣١٤ م أطلق
عليه عنوان « كيفية استئصال المسلمين » ، دعا فيه
نصارى أوروبا الى غزو الامبراطورية البيزنطية
الارثوذكسية ، وتحويلها الى مملكة لاتينية ، ودعمها
بكل قوة لتقف في وجه المد التركي الاسلامي ، ولتكون
منطلقاً للانقضاض على الأتراك المسلمين في الاناضول
التركي لاستئصال شافتهم نهائياً .

ونلمس الحقد الصليبي ضد العثمانيين في اقدام
البابا بيوس الثاني على عقد مجمع شارك فيه ملوك
أوروبا في عام ١٤٥٨ م قرروا فيه تشكيل حلف صليبي
لمحاربة العثمانيين . كما نلمس الحقد الصليبي ضد
الأتراك العثمانيين ، في بيان الملك الفرنسي لويس
الحادي عشر الذي نشره في عام ١٤٧٨ م والذي يقول فيه :

« انني ابتهل الى مريم العذراء المجيدة ان تمنح
ولدي العزيز كارلس شرفاً عظيماً وذلك بأن تمكنه من
الذهاب بنفسه الى الشرق ، ومعه نبلاء فرنسا وفرنسانها ،
لنقال « التركي » المكروه وغيره من الجاحدين » .

ولا يلبث كارلس الثامن أن يتجاوب مع رغبة
لويس الحادي عشر ، فينشر منشوراً يقول فيه :

« اننا اقتداءً بآبائنا ملوك فرنسا المسيحيين
الصادقين ، نريد أن نمنع بكل ما أوتينا من قوة هذه
الموافات الكثيرة التي يرتكبها « الاتراك » بحق الديانة
المسيحية ، وقد أخذنا على أنفسنا عهداً أن لا نبخل
بالفسنا ولا بشيء من امكانياتنا في دفع هؤلاء
الطواغيت « الاتراك » من الممالك التي انتزعوها من
أيدي المسيحيين » .

وفي عام ١٥١٣ م خاطب الملك لويس الثاني عشر
النواب الفرنسيين المجتمعين في مدينة « مالين » قائلا :
« اننا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر في
حملتنا المحمودة المقدسة على « الترك » . »

وفي عام ١٥٢٠م نشر المفكر الهولندي ايرازم نداء
الى ملوك اوربا يدعوهم فيه لحرب الأتراك ، وجاء في
النداء قوله : ان المسيحي لا يمكنه أن يعيش اذا لم
يصرخ « الترك » .

وفي عام ١٥٢٣ م نشر الراهب الهولندي ناينوس
نداء خاطب فيه نصارى اوربا قائلا : ان محاربة المسلمين
أصبحت ضرورة من الضرورات لا مناص فيها ، ف اذا
لم نحارب « التركي » نحن ، فانه سيأتي هو ليحاربنا ،
فلا بد اذا من أن يتفق جميع النصارى لمحاربة « الترك »
وابادتهم .

وفي عام ١٥٤٢م وزعت في بلجيكا نشرة موجهة
الى نصارى اوربا تدعوهم الى الاتحاد والزحف نحو
« الأتراك » لقهر تلك الأمة الجاحدة . . !

وفي ٢٥ تموز من عام ١٥٧١ م أعلن البابا بيوس
الخامس عن قيام حلف صليبي يضم البابا وملك اسبانيا
فيليب وجمهورية البندقية لحرب « الأتراك » واسترداد
جميع المواقع التي احتلوها .

وفي عسام ١٦١٩ م نشر الأب يوسف مستشار
الكاردينال ريشيليو كتاباً بعنوان « كيف نقهر الأمة
١٩٤

التركية الملعونة . . ونشر قصيدة عنوانها « التركية »
قال فيها أن أمنيته الوحيدة أن يتجح في اجبار الأتراك
الملاعين على اعتناق المسيحية .

وفي عام ١٦٢٠ م وضع دوبريف سفير فرنسا في
اسلام بول خطة قدمها لملك فرنسا هنري الرابع كان
عنوانها ، « خلاصة بحث في أضمن الطرق لمحو سلطنة
آل عثمان » .

ولم يتورع نصارى أوروبا عن انتهاج أي سبيل ،
شريف ، وغير شريف ، في الكيد ضد الأتراك العثمانيين ،
ومن أمثلة ذلك ما قام به الكاردينال سيزاريني الذي
بعث به البابا لاقناع ملك المجر لاديسلاس بالمشاركة
في حلف مقدس ضد الأتراك ، فلما أبلغه لاديسلاس
أنه أقسم على الكتاب المقدس أن يرعى معاهدة الصلح
التي عقدها مع السلطان مراد ، اشتاط الكاردينال
سيزاريني غضباً ، وأمر الملك لاديسلاس بنقض المعاهدة
التي لم يمض عليها أكثر من خمسين يوماً فقط ، مؤكداً
له أن الالتزام بالعهود مع المسلمين خطيئة ، وأن حثها
فضيلة ، وأن قسمه على الانجيل لا يلزمه بشيء تجاه
الأتراك الجاحدين .

ان الذين يتهمون الأتراك بأنهم لم يعرفوا طوال فترة حكمهم غير القتال والحرب ، يتناسون أنهم كانوا هدفاً للأحقاد الصليبية على مدى الستة قرون التي حكمت فيها دولتهم ، وفي هذا الصدد يذكر الدكتور احسان حقي في تعليقه على كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » للاستاذ محمد فريد بك المحامي ، ان الغربيين (النصارى) اشغلوا العثمانيين في حروب متواصلة ، فصرفوهم عن الاهتمام بشؤون دولتهم الحضارية .

ويذكر امير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي ، ان الأتراك العثمانيين واجهوا على مدى فترة حكمهم مائة خطة صليبية للاجهاز على الدولة العثمانية ، وقد قام المؤرخ الروماني دجوفارا ، وهو وزير روماني سابق ، بفضح هذه الخطط في كتاب أطلق عليه اسم « مئة مشروع لتقسيم تركيا » ، وقام امير البيان بسرد هذه الخطط المئة بشكل موجز في تعليقاته .

وينبغي ان نشير الى ان هذه الخطط المئة لم توضع جميعها موضع التنفيذ ، بل ان بعضها ولد ميتاً ، ولكن

الخطط التي وضعت موضع التنفيذ كانت ذات خطورة بالغة .

ويمكننا القول أن أول حلف صليبي واجهته الدولة العثمانية كان في المراحل المبكرة لتأسيسها ، عندما نادى أمراء بورصة ومادانوس وأدره نوس وكثه وكستله البيزنطيون في عام ٧٠٠ هـ وفق ١٣٠١ م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية ، ولكن عثمان تمكن من تشتيت الجيوش الصليبية في موقع يقال له دينبوز ، بيد أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد البيزنطيين ، فعادوا بعد سنوات قليلة في عام ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م ، متحالفين مع المغول ، للانقضاض على الدولة الفتية ، فسارع عثمان إلى إرسال ابنه أورخان لمواجهة جيوش هذا الحلف الصليبي - المغولي ، وتنزل نصر الله على المسلمين ، وانهزم المتحالفون .

وفي عام ٧٦٦ هـ - ١٣٦٥ م عقد ملوك وأمراء الصرب والبغار والمجر حلفاً صليبياً مقدساً حظي بباركة البابا أوربيان الخامس ، تعاهدوا بموجبه على محاربة الأتراك حتى يقضوا عليهم قضاء مبرماً ،

وتجمع لهذا الحلف مئة ألف مقاتل بقيادة ملك المجر
لوئي ، وملك الصرب أوردش ، ولكن مكر الله كان أقوى
من مكر المتحالفين ، فهزمتهم الجيوش العثمانية
الاسلامية على مقربة من نهر مريچ ، وبلغ من شدة
هلعهم أن عشرات الآلاف منهم قذفوا بأنفسهم في نهر
مريچ طلبا للنجاة ، فغرقوا في مياهه .

ولم يمض على هزيمة ذلك الحلف الصليبي أربع سنوات
حتى قام حلف صليبي جديد بقيادة الأمير الإيطالي
الأصل أميديو ، الذي نجح في تجميع جيش من الفرسان
الإيطاليين تحت شعار الانتقام للصليب من الأتراك
المسلمين ، وتمكن في عام ٧٧٠ هـ - ١٣٦٨ م من
استرداد مدينة غاليبولي من العثمانيين ، وسلمها إلى
البيزنطيين ، الذين ارتفعت معنوياتهم ، وراودتهم من
جديد أحلامهم السابقة في القضاء على الأتراك
العثمانيين ، فسارع الإمبراطور يوانيس الخامس
بالذهاب إلى روما في عام ٧٧١ هـ - ١٣٦٩ م ، وقابل
البابا أوربانوس الخامس (أوربيان الخامس) ، وطلب
منه المساعدة للوقوف في وجه الخطر الاسلامي المتمثل
في العثمانيين .

وحسن خشي الامبراطور يوانيس الخامس أن
يتناقل البابا الكاثوليكي عن نصره بيزنطية الارثوذكسية،
بادر الى اعلان تحوله عن العقيدة الارثوذكسية الى
العقيدة الكاثوليكية البابوية خلال قداس خاص حضره
البابا ، وأربعة من الكرادلة ، وجمع غفير من القسس
والرهبان ، في اليوم الثامن عشر من تشرين الاول من
عام ١٣٦٩ م .

وكان من الطبيعي أن يتجاوب البابا أوربانوس
الخامس مع استغاثة امبراطور بيزنطية ، فأطلق نداء
الى جميع ملوك وأمراء أوروبا الكاثوليكية ، يدعوهم الى
عقد حلف مقدس جديد ضد العثمانيين ، محذراً إياهم
من خطر اجتياح العثمانيين المسلمين لأوروبا النصرانية
كلها ، وأسفرت جهود البابا الى عقد حلف صليبي
جديد في عام ٧٧٣ هـ - ١٣٧٠ م ، انضوى تحت رايته
حوالي ستين ألف مقاتل بقيادة ملك الصرب الجديد
'دوقاشين' ، ولكن الله عز وجل رد كيدهم الى
نحرهم ، فهزمتهم الجيوش العثمانية بعد معركة عنيفة
على مقربة من سهل بلدة صماقو ، ولكن هذه الهزيمة
لم تفت في عضد المتحالفين ، اذ سرعان ما اعتدى ملك

الصرب الجديد لازار على الحامية العثمانية في « يري
 بازار » ، واستولى عليها ، ولكن الجيوش العثمانية
 تمكنت من استعادتها ، فاضطر لازار الى عقد معاهدة
 صلح مع العثمانيين في عام ٧٧٧ - ١٢٧٥ م ، ولم
 يلبث أن لحقه ملك البلغار شيمان ، فوقع معاهدة صلح
 مع العثمانيين في عام ٧٧٨ هـ - ١٢٧٦ م ، ثم لحقهم
 امبراطور بيزنطية أندرونيقوس بالاً أولوغوس الرابع ،
 فوقع معاهدة صلح مع العثمانيين في عام ٧٨١ هـ -
 ١٢٧٩ م .

وعلى الرغم من توقيع تلك المعاهدات ، فإن نيران
 الأحقاد الصليبية كانت تتفاعل بعنف في نفوس
 الصليبيين ، الذين كانوا يتحينون الفرص لينفثوا
 أحقادهم ضد العثمانيين المسلمين ، ولم تلبث الفرصة
 أن واثتهم في عام ٧٩١ هـ - ١٢٨٩ م ، فأعلن ملك
 الصرب لازار ، وملك البلغار شيمان ، نقضهما لعهدهما
 مع العثمانيين ، فسارع السلطان مراد لمواجهة ملك
 البلغار شيمان ، فهزمه وأسره ، وحين وصل خبر هزيمة
 شيمان الى ملك الصرب لازار ارتبك ، واهتزت
 معنوياته ، فسارع الى الاستنجاد بأمرأه البوسنة ،

والهرسك ، وأولاح ، وبعض أمراء الأرنؤوط ، فتجمعت
لديه قوات ضخمة سار بها لملاقاة العثمانيين الذين
تركزوا في منطقة قوصوه ، حيث وقعت معركة حاسمة
أسفرت عن تنزل نصر الله عز وجل على المسلمين واندحار
الصليبيين ، ووقوع لازار في الأسر .

وفي عام ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م ، واجهت الدولة
العثمانية خطراً جديداً تمثل في نجاح البابا بونيفاسيوس
التاسع في تشكيل حلف صليبي يصفه كارل بروكلمان
بأنه كان يمثل عملية احياء للفكرة الصليبية التي كان
الأوربيون قد نسوها في الظاهر ، وقد انتظم في هذا
الحلف ملك المجر سيجسموند ، ودوق برغويتا
الفرنسي ، وابنه الكونت دي نيفر ، وأمير بافاريا
(ألمانيا) ، وأمير استوريا (النمسا) ، وفرسان
القديس يوحنا الأورشليمي الذين كانوا يتخذون من
جزيرة رودس قاعدة لهم ، ووقعت المعركة الحاسمة
بين الصليبيين وبين الجيش العثماني بقيادة السلطان
بايزيد الصاعقة ، على مقربة من نيغبولي ، وأسفرت
عن انتصار المسلمين ، ووقوع عدد كبير من أمراء أوربا
وأشرافها في الأسر ، ولكن بايزيد أفرج عنهم بعد أن

اقسموا امامه بأن لا يعودوا الى محاربة المسلمين ثانية .
ثم عاد فاحلهم من قسمهم قائلا لهم :

اذا رغبتم في العودة لحربنا ، فتعالوا حينما تريدون .
فوالله لا شيء أحب اليينا من محاربة جميع نصارى
اوربا والانتصار عليهم .

ولم يكذب بايزيد يقضي على خطر ذلك الحلف
الصليبي ، حتى جاء النذير بخطر جديد تمثل في اجتياح
تيمورلنك ، بتحريض من نصارى اوربا ، للأناضول
التركي . ووقعت المعركة الحاسمة في سهل شوبوك
أوفا في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ذي الحجة
من عام ٨٠٤ هـ (٢٨ تموز ١٤٠٢ م) ، وأسفرت عن
هزيمة ساحقة للعثمانيين ، تهلت لها أسارير نصارى
اوربا ، فسارعوا الى اعلان تمردهم على الدولة العثمانية ،
فاعلن ملك الصرب لازار نقضه لمعاهدة الصلح التي
عقدتها مع العثمانيين . ثم تبعه في ذلك ملك البلغار ،
ثم أمير الفلاح .

وبعد وفاة بايزيد ، خلفه ابنه محمد جلبي الذي
بذل جهوداً كبيرة للتصدي لأكثر من مؤامرة استهدفت

القضاء على الدولة العثمانية ، وقد نجح محمد جلبي
 في استعادة شيء من هيبة الدولة العثمانية التي اهتزت
 اثر هزيمة بايزيد أمام تيمورلنك ، ولما توفي محمد
 جلبي ، ولي السلطنة ابنه مراد الثاني ، فأكمل مسيرة
 ابيه في استعادة هيبة الدولة العثمانية ، لكنه واجه
 خطراً جديداً تمثل في قيام حلف صليبي جديد انتظم
 امير بلاد الفلاح الملقب بالشيطان ، وملك المجر ، وأمير
 الصرب ، ولكن السلطان مراد الثاني تمكن من هزيمة
 جيوش هذا الحلف الصليبي في عام ٨٣٩ هـ - ١٤٣٦ م ،
 ويبدو ان هذه الهزيمة لم تفت في عضد أمير الصرب
 جورج برنكوفتش ، الذي سرعان ما عاد ليعلن
 العصيان من جديد ، فسار اليه السلطان مراد ، ففر
 برنكوفتش والتجأ الى حليفه الجديد الملك لاديسلاس
 الذي خلف الملك سيجسموند على عرش المجر ، ووقعت
 المعركة الحاسمة في عام ٨٤٦ هـ - ١٤٤٣ م ، وانتصر
 الجيش الصليبي بقيادة القائد المجري الشهير هونياد ،
 واستشهد في المعركة عشرون ألف مسلم ، ووقع عدة
 آلاف مسلم في الأسر ، فأمر هونياد بقطع رؤوسهم
 جميعاً ، وبني من جماجمهم عدة أهرامات .

وفي العام التالي ٨٤٧ هـ - ١٤٤٣ م ، واجه
 العثمانيون خطراً آخر تمثل في انتصار هونياد على
 جيش عثماني قوامه ثمانون ألف مقاتل ، بعد معركة
 ضارية قرب مدينة « يالو واز » ، ويبدو أن هذين
 الانتصارين أغريا هونياد فقرر مهاجمة السلطان مراد
 نفسه ، وتمكن من هزيمته بعد معركة ضارية على مقربة
 من مدينة نيش ، فاضطر السلطان مراد الثاني الى
 عقد معاهدات صلح مع ملوك وأمرأ الصرب والمجر
 والفلاح ، تنازل لهم بموجبها عن كثير من المناطق التي
 كانت خاضعة للدولة العثمانية . بيد أن هذه المعاهدات
 لم يدم مفعولها طويلا ، إذ أن أخبار انتصارات هونياد
 المتوالية ضد العثمانيين حركت أطماع بابا روما في
 القضاء على الأتراك العثمانيين المسلمين ، فسارع الى
 ارسال الكاردينال لاديسلاس الى ملوك وأمرأ الصرب
 والمجر والفلاح ، لتحريضهم على تشكيل حلف جديد
 للقضاء نهائياً على الدولة العثمانية ، وحين علم الكاردينال
 سيزازيني أنهم قد عقدوا معاهدات صلح مع العثمانيين ،
 استشاط غضباً ، وأجبرهم على نقض المعاهدات مؤكداً
 لهم أن الوفاء مع المسلمين يعتبر خطيئة .

وتمكن الكاردينال سيزاريني من اقناع ملكي
 المجر والصرب وأمير الفلاح وأمير الاولاح ، وأمير الافلاق
 بدخول حلف صليبي جديد ، وأصدر البابا أوامره الى
 الكاردينال كوندولير قائد الاسطول البابوي بالاتصال
 مع الامبراطور البيزنطي يواينس باله أولوغوس ،
 لاقناعه بالانضمام الى الحلف الجديد ، وقامت السفن
 البابوية باغلاق الممر الفاصل بين آسيا وأوروبا في منطقة
 « جناق قلعة » لمنع عبور النجذات العثمانية من البر
 الآسيوي الى البر الاوروبي ، وزاد من خطورة هذا
 الحلف الصليبي الجديد انضمام الآلاف من الفرسان
 الالمان والاطليان اليه ، ووقعت المعركة الحاسمة في ٢٨
 رجب من عام ٨٤٨ هـ (١٠ تشرين ثاني ١٤٤٤ م) ،
 على مقربة من مدينة « وارنة » ، وأسفرت عن هزيمة
 منكورة للصليبيين ، وعن مقتل ملك المجر لاديسلاس ،
 ومنسوب البابا الكاردينال سيزاريني ، وفر قائد الحلف
 القائد المجري هونياد .

ولم تضر سنوات قليلة حتى واجه السلطان محمد
 الفاتح ، الذي خلف والده مراد ، خطراً جديداً تمثل في
 قيام الامبراطور البيزنطي قسطنطين على مناشدة بابا

روما وملوك وأمراء أوربا الكاثوليكية لتشكيل حلف صليبي لمحاربة العثمانيين ، وأبدى الامبراطور قسطنطين استعدادة لتوحيد كنيسة الارثوذكسية بالكنيسة البابوية الكاثوليكية وأراد أن يعبر عن صدق رغبته في توحيد الكنيستين ضد الخطر التركي الاسلامي ، فجنم على ركبتيه بين يدي الكاردينال الكاثوليكي «أيزيدور» طالبا بركته في قصره الامبراطوري في القسطنطينية . وعلى مرأى ومسمع رجال دولته وأشرفها ، في الثلاثين من شهر ذي القعدة من عام ٨٥٦ هـ - (١٢ كانون أول ١٤٥٢ م) .

ويروي الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في كتابه « السلطان محمد الفاتح » أن الامبراطور قسطنطين بعث الى البابا برسالة يندره فيها بأنه اذا لم تسارع أوربا الكاثوليكية لنصرة القسطنطينية ، فإن هدف الاتراك القادم سيكون روما ، مركز البابوية ذاتها .

ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تلاشى حين جوبه قسطنطين بمعارضة شديدة من رجال الكنيسة الارثوذكسية الذين رفضوا فكرة توحيد الكنيستين

نحت زعامة البابا الكاثوليكي ، وبلغ من حدة المعارضة
أن الدوق الأكبر ناطوراس أعلن عن رفضه لتلك
الفكرة قائلا :

« انني افضل عمامة المسلم البيضاء ، على قبعة
الكاردينال الكاثوليكي الحمراء » .

بيد أن الخطر لم يلبث أن اندلع من جديد في وجه
السلطان الفاتح ، حين تزعم البابا نقولا الخامس حملة
نشطة لتشكيل حلف صليبي مقدس ، وترأس بنفسه
مؤتمرا في روما أسفر عن اتفاق ملوك وأمراء أوروبا
الكاثوليكية على تجميد خلافاتهم ، وحشد جميع
طاقاتهم للتصدي للأتراك العثمانيين ، واستنقاذ عاصمة
الكنيسة الأرثوذكسية ، القسطنطينية ، منهم .

وكان الأمير فيليب الطيب بورجونديا من أشد
زعماء أوروبا تحمسا لتشكيل الحلف الجديد ،
وأسفرت جهوده عن اقناع امبراطور المانيا فريدريك
الثالث ، وملك فرنسا شارل السابع ، بالانضمام
للحلف الجديد ، ولكن الحماس لتشكيل هذا الحلف
لم يلبث أن خبا اثر وفاة البابا نقولا الخامس في عام
١٤٥٥ م ، فحاول خلفه البابا بيوس الثاني أن يعيد

الروح الى ذلك الحلف ، لكنه لم يلق تجاوباً مشجعاً
من أنصار الحلف المتحمسين كدوق بورجونديا ، وملك
فرنسا ، وامبراطور المانيا ، ولم يستجب له غير ملك
المجر لاديسلاس الذي جهز جيشاً ضخماً بقيادة القائد
الشهير هونياد ، ثم انضم اليه ملك الصرب جورج
برانكوفتش .

وفي منتصف عام ٨٥٩هـ - ١٤٥٥م ، باغتت
الجيوش الصليبية الحامية العثمانية التي عهد اليها
السلطان الفاتح بالمرابطة في المناطق التي تم فتحها من
بلاد الصرب ، وتمكن هونياد من التغلب على الحامية
العثمانية ، فسارع السلطان الفاتح لمواجهة هونياد ،
وتمكن من التغلب عليه ، واضطر هونياد وحليفه ملك
الصرب برانكوفتش الى الفرار .

ولم يكف السلطان الفاتح يقضي على خطر الحلف
الصليبي المجري الصربي ، حتى واجه خطراً صليبياً
جديداً تمثل في تحالف ملك نابولي الايطالي وزعيم بلاد
الأرناؤوط (البانيا) اسكندر بك ، ولكن الفاتح تمكن
من هزيمة الجيوش الصليبية .

وفي تلك الاثناء كان فرسان القديس يوحنا
يصعدون نشاطهم الحربي ضد الجزر والشواطىء
العثمانية ، فسيّر الفاتح اسطولا بقيادة يونس باشا
تمكن من إلحاق الهزيمة بهم ، فاضطر قائدهم جاكوس
دي ميللي ، الذي كان يلقب بالأستاذ الاعظم ، الى
توقيع معاهدة تعهدوا بموجبها بالكف عن إيذاء
المسلمين .

بيد ان الخطر الصليبي لم يلبث أن ظهر من جديد
في عام ٨٦٠ هـ - ١٤٥٦ م ، حين نجح بابا روما في
تشكيل قوة صليبية بقيادة الراهب المجري جيوفاني
دي كايستراتو ، انضم اليها مئات المتطوعين تحت راية
الصليب من المانيا وايطاليا ، والنمسا ، وتمكنت هذه
القوة من مساعدة القائد المجري هونياد في صد الهجوم
العثماني على بلغراد ، مما اضطر السلطان الفاتح الى
اصدار أوامره بالانسحاب من بلغراد بعد أن تمكن
الجيش العثماني من دخولها ، ويبدو أن انسحاب
العثمانيين ألهم حماس الصليبيين ، فقاموا بملاحقة
الجيش العثماني حتى أوصلوه الى مركز قيادته ، وكادوا
يجهزون عليه ، لولا ما أبداه السلطان الفاتح من رباطة

جاش الهبت حماس جنوده ، فصدوا أمام الصليبيين ،
ثم اضطروهم الى الانسحاب .

وفي عام ٨٦١ هـ - ١٤٥٧ م ، واجه الفاتح خطراً
جديداً تمثل في تحالف ملك نابولي الفونسو الخامس
مع زعيم الأرنأوط اسكندر بك ، بمباركة البابا الجديد
كاليكطوس الثالث ، الذي شارك في التحالف بقوة
بحرية بقيادة الكاردينال لودوفيتشي ، وقد تمكن
المتحالفون من احراز النصر على جيش عثماني بقيادة
علي بن أفرينوس بك ، واستولى الاسطول البابوي على
جزيرتي ليمني وناشوز ، لكن نشوة هذه الانتصارات
الصليبية تهاوت أمام الانتصارات التي حققها السلطان
الفاتح في شبه جزيرة المورة واليونان .

لكن الخطر الصليبي لم يلبث أن اطل براسه من
جديد في عام ٨٦٥ هـ - ١٤٦١ م ، وتمثل في تحالف
مملكة طرابزون النصرانية مع الأمير حسن الطويل زعيم
دولة « الكوينلو » التي كانت تتخذ من سيواس
عاصمة لها ، والتي كانت تعتبر نفسها الوريثة
الشرعية لدولة الأتراك السلاجقة ، وتزايد خطر هذا

الحلف بانضمام البندقية وجنوه اليه بموجب معاهدتين
بريتين ، ولكن السلطان الفاتح تمكن من هزيمة حسن
الطويل ، ثم يمّم شطر طرابزون ففتحها .

وفي عام ٨٦٧ هـ - ١٤٦٣ م ، فوجيء الفاتح بخطر
جديد تمثل في قيام حلف صليبي جديد بمباركة البابا
بول الثاني ، وانضم الى الحلف ملوك وأمراء نابولي ،
والأراغون ، وزعماء جمهوريات البندقية ، وفلورنسا ،
وسيني ، ولوكوس ، وزعماء دوقيات ميلانو ، وفراري ،
ومودينا ، وساندي .

وزاد من خطورة الحلف الجديد نجاح البابا في اغراء
دولة المماليك ، التي كانت تحكم مصر والشام ، بمد يد
العين الى حسن الطويل ليعلم العصيان من جديد ضد
الدولة العثمانية بموجب معاهدة سرية وقّعها حسن
الطويل مع أحد نبلاء البندقية واسمه كاترينو زينو في
ربيع عام ٨٧٥ هـ - ١٤٧١ م ، تعهد حسن الطويل
بموجبها بطرد العثمانيين من الأناضول ، وملاحقتهم حتى
مضيق الدردنيل ، حيث تتحد قواته هناك مع قوات
التحالف الصليبي ، للانقضاض على القسطنطينية ،
وطرد العثمانيين منها .

ويمكن القول أن هذا الحلف الصليبي الجديد ،
المتعاون مع دولة المماليك ، ومع حسن الطويل ، كان
يشكل خطراً ساحقاً لا يمكن التقليل من خطورته ،
خاصة وأن انضمام جمهورية البندقية إليه ، زوده
بقوة بحرية ضخمة تزيد عن ٣٦٠٠ سفينة حربية
بقيادة الأدميرال بيترو موسينغو ، وقد تمكن المتحالفون
في بداية الأمر من تحقيق بعض الانتصارات ضد
العثمانيين ، إلا أن السلطان الفاتح حقق انتصاراً
حاسماً ضد حسن الطويل في عام ٨٧٨هـ - ١٤٧٣م .

ولقد كان من الطبيعي أن تهتز أوروبا النصرانية
غضباً عندما تناهت إلى أسماعها أنباء انتصار السلطان
الفاتح ، فقد كان ذلك الانتصار إيذاناً بفشل
مخططاتها في تشكيل جبهة نصرانية ، إسلامية ضد
العثمانيين ، وإيذاناً باقتراب الخطر العثماني الإسلامي
من أبوابها أكثر من أي وقت مضى ، واشتد الحقد
بالأدميرال بيترو موسينغو قائد أسطول البندقية
والقائد العام للأسطول الصليبي ، فصب جام حقه على
مدن أنطاكية ، وأزمير ، ومدلسي ، وركز على مدينة
أزمير فهدم جميع مساجدها وأحرقها ، ولم تسلم

الكنائس من التخریب ، وأعمل السيف في رقاب
الرجال ، وانتهك الاعراض ، وارتكب من الجرائم
الوحشية ضد المسلمين ما لا يخطر على بال ، كما يقول
المؤرخ التركي اسماعيل حامي دنشمنده .

ويبدو ان انتصار الصليبيين في ازير وانطاكيا
ومدلي قد أغراهم على المضي في هجومهم ضد العثمانيين ،
فتعاونوا مع فلول أمراء سلطنة قرمان ، وتمكنوا من
استرداد منطقة ايشال والسيطرة عليها ، ولكن مقامهم
لم يطل بها ، اذ سرعان ما استعادها العثمانيون ، وكان
ذلك في عام ٨٧٩ هـ - ١٤٧٤ م .

وما كاد السلطان الفاتح ينجح في إيقاف التقدم
الصليبي ، حتى تواردت اليه الانباء عن تكث أمير بلاد
البغدان (شمال رومانيا) لمعاهدة الصلح التي كان
قد عقدها مع السلطان الفاتح في عام ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م ،
وامتناعه عن دفع الجزية السنوية للدولة العثمانية ،
وعن قيام الأمير ستيغان الرابع بتجهيز جيش كبير
لمحاربة العثمانيين ، فسارع السلطان الفاتح الى ارسال
قوة بقيادة سليمان باشا لمواجهة أمير البغدان ، ولكن

هذا الأمير تمكن من الإيقاع بالقوة العثمانية في كمين ،
وتمكن بسهولة من التغلب عليها بسبب الإرهاق الذي
كان يعاني منه الجنود ، وتمكن قائدهم سليمان باشا
من النجاة بنفسه بصعوبة ، وقام الأمير ستيغان بأعدام
جميع الأسرى المسلمين بوضعهم فوق الخوازيق وهم
أحياء ، وكان ذلك في اليوم التاسع من رمضان المبارك
من عام ٨٧٩ هـ وفق السابع من كانون الثاني من عام
١٤٧٤ م . واستقبل البابا نبأ انتصار ستيغان بفرح
عظيم ، وسارع إلى منح بركاته للأمير ، وأنعم عليه
بلقب « فارس المسيح » .

على أن هزيمة سليمان باشا لم تفت في عضد
السلطان الفاتح ، بل زادت من عزمه على تأديب « فارس
المسيح » ، الأمير ستيغان الرابع ، وقرر اتباع خطة
جديدة فهاجم المستعمرات الجنوبية في شمالي البحر
الأسود وسيطر عليها ، فأنهى بذلك الوجود النصراني
في البحر الأسود ، وتمكن من إصابة عصفورين بحجر
واحد ، إذ أحكم الحصار من تلك الجهة على بلاد البغدان ،
ودعم موقفه الدفاعي في وجه إمارة موسكو النصرانية
التي بدأت في استعراض عضلاتها في وجه الدولة

العثمانية ، والتي كان على رأسها الامير الداهية «ايغان
العظيم» ، الذي كان متزوجاً من ابنة الامير توماس
شقيق آخر امبراطور بيزنطي قسطنطين الحادي عشر .

وعندما توفي السلطان الفاتح رحمه الله في عام
٨٨٦ هـ - ١٤٨١ م ، تنفست أوروبا النصرانية الصعداء ،
واصدر البابا سكيتيوس الرابع أوامره باقامة صلوات
الشكر في جميع الكنائس الكاثوليكية ، وقرعت أجراس
الكنائس ابتهاجا ، وبدأت الصليبية مرحلة جديدة في
التخطيط للتصدي للأتراك العثمانيين والقضاء عليهم .

وتزعم ملك فرنسا كارلس الثامن في عام ١٤٩٤ م ،
بمباركة البابا الجديد اسكندر بورجيا أول تحرك
صليبي ضد الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان الفاتح ،
الا انه اصطدم بمعارضة ملك نابولي ورئيس جمهورية
البندقية اللذين شكيا في نواياه العدوانية ضد بلادهما ،
وكان كارلس الثامن يعتبر نفسه الوريث الشرعي
لعرش الامبراطورية البيزنطية بموجب صك وقعه له
الامير البيزنطي اندريه باليولوج في السادس من تشرين
ثاني من عام ١٤٩٤ م ، وكانت خطته أن يستولي على

نابولي ، لينطلق منها الى القسطنطينية ، وقد تمكن
فعلا من الاستيلاء على نابولي ، بمباركة البابا اسكندر
بورجيا السادس ، وانضم اليه فيما بعد قائد فرسان
القديس يوحنا المتمركز في جزيرة رودس ، وأرسل
اليه مبعوثا يعلن انضمامه اليه قائلا انه يأمل أن يتمكن
اهل الصليب من استئصال شافة الامة الملعونة ، امة
محمد ، كما ورد في ص ٤٩ من كتاب « مئة مشروع
لتنظيم تركيا » الذي ألفه المؤرخ الروماني دجوفارا .

وكاد الملك كارلس يحقق أغراضه لولا أن بابا
روما بدأ يشعر بالريبة تجاه نواياه ، فتحالف مع
جمهورية البندقية ، والامير الفرنسي زعيم الارغوان ،
فاضطر كارلس الثامن الى التخلي عن عزمه على غزو
القسطنطينية ، وعاد الى فرنسا .

وتجدد الخطر الصليبي ضد العثمانيين في عام
١٥٠٨ م ، عندما دعا البابا يوليوس الثاني ملوك وزعماء
أوروبا الكاثوليكية الى عقد حلف جديد ضد الاتراك ،
ولكن رغبته لم تتحقق الا بعد وفاته ، حين نجح خلفه
البابا لاون العاشر في عام ١٥١٥ م في تشكيل حلف

صليبي جديد انضم اليه امبراطور المانيا مكسيميليان ،
 وملك انكلترا وملك بولونيا ، ودوق مسكوبيا المسمى
 يازيل ، وملك فرنسا فرانسوا الاول ، وملك البرتغال ،
 غير ان الحزازات التي كانت محتدمة بين هؤلاء حالت
 دون قيام أي نشاط عملي ، فأعلن البابا في عام ١٥١٧ م
 هدنة بين ملوك أوروبا لمدة خمس سنوات ليتفرغوا
 خلالها لمحاربة الأتراك ، وتصادف ذلك مع ورود الاخبار
 باستيلاء السلطان سليم على مصر وضمها الى الدولة
 العثمانية ، فاستشاط ملوك أوروبا غضباً ، وسارعوا
 الى تلبية نداء البابا ، وعلى رأسهم ملوك فرنسا
 واسبانية وانجلترا والبرتغال والمجر وبولونيا
 والديمرك وأوسيا ، وشرع المتحالفون في عام ١٥١٩ م
 بتجهيز جيوشهم ، ولكن موت الامبراطور مكسيميليان
 الاول في عام ١٥١٩ م وضع حداً لحماسهم ، فانفرط
 عقدهم .

وشهدت فترة حكم السلطان سليمان القانوني
 (٩٢٦هـ - ٩٧٤هـ) - (١٥٢٠ م - ١٥٦٦ م) تقلص
 الخطر الصليبي ، بل ان معظم زعماء أوروبا عقدوا
 معاهدات صلح مع الدولة العثمانية خوفاً وهلعاً ، لكن

الاحقاد الصليبية عادت تظهر من جديد في عهد ولسه
 السلطان سليم الثاني ، حيث عقدت جمهورية البندقية
 حلفاً مع مملكة اسبانيا بمباركة البابا بيوس الخامس
 في عام ٩٧٩ هـ - ١٥٧١ م ، وتمكنت جيوش الحلف
 الصليبي من هزيمة الجيش العثماني في معركة بحرية
 اسفرت عن أسر حوالي ثلاثين ألف جندي عثماني ،
 والاستيلاء على ١٣٠ سفينة حربية عثمانية بحالة
 سليمة ، وكان لهذا الانتصار الصليبي رنة فرح غامرة
 في قلوب نصارى أوروبا وأعقب هذا الانتصار انتصار
 آخر في عام ١٥٩٥ م ، عندما انهزم جيش السلطان
 مراد الثالث ابن سليم الثاني أمام الحلف الصليبي الذي
 تشكل من أمراء بلاد الفلاح والبغدان وترنسلفانيا ،
 وملوك المجر والنمسا وامبراطور المانيا ، ولم يتوقف
 خطر هذا الحلف الصليبي الا عندما تمكن السلطان
 محمد الثالث ابن مراد الثالث من الحاق الهزيمة
 بالجيوش الصليبية في موقعة ترزت ، في عام ١٥٩٦ م .
 ويبرز اسم البابا اكليمنضوس الثامن كواحد من
 أشد البابوات حقداً على الاتراك ، فقد استهل عهده
 فور تسلمه منصب البابوية في عام ١٥٩٢ م ، باستنفا

الإمبراطور الألماني رودولف ، وملك روسيا ، وأمير
السلطان سيجسموند ، لحرب الأتراك وأرسل
القسبين كوستا وديا غوميرندا لتحريض العجم على
العرش بالدولة العثمانية .

وفي عام ١٦٠٠م عقد مجمعا كنسياً ، دعا فيه ملوك
وأمرء أوروبا لتوحيد جهودهم لمحاربة الأتراك ، واشتط
به الحماس ، فأجهش بالبكاء ، وعندما انفض المجمع
أرسل الكاردينال ريموندو لاتوري الى فيينا لاستتفار
إمبراطور النمسا للدخول في حلف صليبي لمحاربة
الأتراك ، وبلغ من شدة حماس البابا أكليمنتوس
الناظم لفكرة محاربة الأتراك انه دعا البروتستانت
لدخول الحلف المقدس ضد الأتراك ، على الرغم من
احتدام الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت .

وفي عام ١٦٠١م اشتط الغضب بالبابا أكليمنتوس
أثر مقتل ابن أخيه الجنرال آلدونبرانديني أثناء معركة
ضد الأتراك ، فبذل جهداً كبيراً لاقتناع ملك فرنسا
هنري الرابع ، وملك اسبانيا فيليب الثالث ، بتجميد
خلافاتهما والدخول في حلف مقدس لمحاربة الأتراك ،

وكادت جهود البابا تفلح ، لولا أن ملك فرنسا اكتشف
مؤامرة كانت تدبر ضده بتحريض من ملك اسبانيا .

وفي عام ١٦١٤ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً عندما بارك البابا بولس جهود الدوق شارل
دونفير الذي ينسب الى العائلة الامبراطورية البيزنطية
من جهة جدته ، لتشكيل حلف صليبي جديد ضد
الأتراك ينضم اليه خمسة عشر ألف مقاتل من اهل
المورة ، وبضعة آلاف من الصرب والارناؤوط والبوسنة
والهرسك والبلغار والدالميا ، وجرت اتصالات مع أمير
الفلاح والبغدان وملك اسبانيا وملك فرنسا وجمهورية
البندقية للمشاركة في الحلف ، وكادت جهود الدوق
شارل دونفير تنجح في تشكيل الحلف بمباركة بابا
روما ، لولا أن جمهورية البندقية تراجعت عن الدخول
فيه ، فتقاعس بقية الحلفاء ، وانفرط عقدهم .

وفي عام ١٦٥٧ م تمكن أسطول جمهورية البندقية
من الاستيلاء على الدردنيل ، وقطعوا عن اسلام بول
جميع الطرق البحرية الموصلة اليها ، ولكن العثمانيين
تمكنوا بعد عناء من فك الحصار عن القسطنطينية ودمروا
السفن الصليبية .

وفي عام ١٦٦٠ م ، نجح الكاردينال مازارين في
اصلاح العلاقات بين ملك فرنسا وملك اسبانيا ، فشكلا
حلفاً صليبياً انضم اليه الآلاف من الفرنسيين والاسبان
والمالطيين ودوق توسكانا ، وبارك البابا هذا الحلف ،
وحقق اسطول هذا الحلف نصراً على العثمانيين ، لكنهم
لم يلبثوا أن هزموا جيوش هذا الحلف شر هزيمة في
معركة « قنديا » .

وفي عام ١٦٦٤ م واجه العثمانيون خطراً جديداً
تمثل في حلف صليبي جديد باركه البابا اسكندر
السابع ، وانضم اليه امبراطور النمسا ليوبولد ، وملك
فرنسا لويس الرابع عشر ، والكونت الالماني دي كوليني
على رأس أربعة وعشرين ألف مقاتل الماني ، والدوق
الفرنسي دي لافوياد ، واندلعت المعركة قريباً من نهر
« راب » ، وسميت المعركة باسم « معركة سان جوتار »
نسبة الى كنيسة مهجورة وقعت المعركة قريباً منها ،
وحقق الصليبيون تفوقاً في المعركة ، لكنهم لم يستطيعوا
حسمها نهائياً ، فاضطروا لعقد معاهدة صلح حصلوا
بموجبها على بعض المكتسبات الاقليمية ، ولكن ملك
فرنسا نقض المعاهدة في عام ١٦٧٠ م وارسل اسطولا

بحرياً لمحاربة العثمانيين ، الا أنه عاد فسحبه بناء على
مشورة وزيره كولبر الذي أقنعه بعدم جدوى محاربة
العثمانيين منفرداً .

وفي عام ١٦٧٢ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في قيام القائد البولوني سوبيسكي بمهاجمة
مدينة لمبرج والاستيلاء عليها ، ودحر الجيش العثماني
الذي أرسلته الدولة لمحاربته ، واستمرت الحرب بينه
وبين الدولة العثمانية حتى عام ١٦٧٦ م .

وما كادت الدولة تستريح من الحرب البولونية ،
حتى واجهت خطراً جديداً تمثل في حلف روسي -
قوزاقي ، واستمرت الحرب بين العثمانيين ، والروس
وحلفائهم حتى عام ١٦٨١ م ، حيث انتهت بعقد معاهدة
رادزين بين الطرفين .

وفي عام ١٦٨٣ م واجه العثمانيون الخطر من جديد
حين تحالف ملك بولونيا الجديد سوبيسكس مع أمراء
بافاريا وساكس (مقاطعة المانية) ، وبارك البابا هذا
الحلف ، وتمكنت الجيوش الصليبية من هزيمة جيش
عثماني بقيادة قره مصطفى باشا ، فأغرى هذا الانتصار

ملك النمسا ورئيس جمهورية البندقية وراهبان مالطة
وملك روسيا ، فأعلنوا انضمامهم بتحريض من البابا
الى الحلف المقدس ، وأقسموا على محو الدولة العثمانية
من الوجود ، وزاد من خطورة الوضع اقدام ملك فرنسا
على قطع علاقاته الدبلوماسية مع الدولة العثمانية ،
وتمكن جيوش الحلف الصليبي من احراز عدة
انتصارات ضد الجيوش العثمانية ، في جهات اليونان
والجر والبغدان والمورة ، وحقق الصليبيون نصرهم
الحاسم في سهل موهاكر في عام ١٦٨٧ م ، حيث قضوا
قضاء مبرماً على الجيوش العثمانية التي كان يقودها
الصدر الأعظم سليمان باشا ، وأعقب تلك الهزيمة
استيلاء الجيوش الصليبية على مدن بلغراد ونيش وعدد
كبير من المدن الاخرى والقلاع ، ولم يتوقف هذا الخطر
اللاحق الذي كان يهدد كيان الدولة العثمانية الا عندما
تمكن جيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم
كوبريللي مصطفى باشا ، من هزيمة الجيوش
الصليبية في عام ١٦٩٠ م ، واستعادت منها بلغراد
ونيش وجميع المدن والقلاع التي كانت قد استولت
عليها .

بيد أن الخطر لم يلبث أن اندلع من جديد في عام ١٦٩٥م. عندما قاد امبراطور روسيا الشهير بطرس الأكبر جيشاً ضخماً لمهاجمة الجيوش العثمانية في بلاد القرم ، وتمكن من محاصرة مدينة « ازاك » بغية فتحها لتصبح منفذاً له على البحر الاسود ، ولكن هذا الخطر ارتفع بسبب اضطرار بطرس الأكبر الى الانسحاب تحت وطأة الصمود الذي أبدته الجيوش العثمانية .

وفي عام ١٦٩٦ م برز خطر جديد تمثل في هجوم صاعق قام به الجيش النمساوي على الجيوش العثمانية المرابطة في رومانيا ، لكن حدة الهجوم انحسرت اثر هزيمة الجيش النمساوي أمام العثمانيين في معركة « اولاش » . ولكن القائد الجديد للجيش النمساوي الامير اوجين دي سافوا تمكن من ايقاع هزيمة منكرة بالعثمانيين في عام ١٦٩٧ م أثناء عبور العثمانيين لنهر « تيس » في بلاد المجر ، وانتهم بطرس الأكبر امبراطور روسيا مناسبة هزيمة الجيوش العثمانية فهاجم مدينة « ازاك » ، واستولى عليها ، ولولا أن الجيش العثماني الذي ارسله السلطان مصطفى خان الثاني بقيادة الصدر الأعظم كوبريللي حسين باشا تمكن من إيقاف

الهجوم النمساوي ، لمواجهة الدولة العثمانية خطر
الإبادة أمام الخطر الروسي من جهة والخطر النمساوي
من جهة أخرى ، وقد اضطرت الدولة العثمانية آنذاك ،
ورغم النصر الذي حققه حسين باشا ضد الجيش
النمساوي ، الى ابرام معاهدة « كارلوفتش » في عام
١٦٩٩ م ، تنازلت بموجبها عن بلاد المجر ، واقلية
ترانسلفانيا للنمسا ، وعن مدينة « ازاك » لروسيا ،
وعن مدينة كاينك واقلية بودوليا واوكرانيا ،
وعن جزيرة الحورة للبندقية ، وكانت هذه المعاهدة من
أقسى النكسات التي أصيبت بها الدولة العثمانية .

وفي عام ١٧٠٩ م اندلع الخطر من جديد متمثلا
في انتصار بطرس الأكبر على ملك السويد شارل
الثاني عشر حليف الدولة العثمانية ، وكاد الجيش
العثماني يقضي على الجيوش الروسية بقيادة بطرس
الأكبر حين حاصرته بقيادة الصدر الأعظم بلطه جي
محمد باشا ، ولكن عشيقه بطرس الأكبر كاترينا تمكنت
من اغواء بلطه جي باشا ، ففك الحصار عن الجيوش
الروسية ، مما أنقذها من خطر الإبادة التامة ، وأعطاهما

الفرصة لإعادة التحرش بالدولة العثمانية ، ولكن
بطرس الأكبر اضطر الى عقد معاهدة ادرنة في عام ١٧١٣ م .
بيد أن الخطر لم يلبث أن تزايد في نفس العام
عندما تحالف امبراطور النمسا شارل الثالث مع البندقية ،
وتمكنت جيوش المتحالفين بقيادة الامير أوجين دي سافوا
من هزيمة العثمانيين في معركة « بترأورددين » في عام
١٧١٦ م ، وأعقب ذلك استيلاؤهم على مدينة بلغراد ،
واضطرت الدولة العثمانية ازاء ذلك الى توقيع معاهدة
« ساروفتش » ، قدمت بموجبها تنازلات جديدة الى
النمسا والبندقية .

وفي عام ١٧٣٦ م واجهت الدولة خطراً جديداً
تمثل في انتهاز روسيا والنمسا وفرنسا فرصة انشغال
العثمانيين في محاربة سلطان العجم نادر شاه ، فأعلنت
عن تشكيل حلف صليبي جديد ضد العثمانيين ، مما
حدا بالسلطان العثماني محمود خان الأول الى عقد
معاهدة صلح مع نادر شاه للتفرغ لمواجهة خطر الحلف
الصليبي الجديد ، وتمكنت الجيوش العثمانية من
ازالة هذا الخطر الصليبي بعد احرازها النصر الحاسم
في عام ١٧٣٩ م .

وفي عام ١٧٦٢ م ، واجهت الدولة العثمانية خطراً جديداً تمثل في قيام كاترينا الثانية امبراطورة روسيا بمحاولة السيطرة على بولونيا اثر وفاة ملكها أوغست الثالث حليف الدولة العثمانية ، فاندلعت الحرب بين الدولتين ، وتمكنت الجيوش الروسية من احراز النصر على جيش عثماني بقيادة الصدر الاعظم محمد أمين باشا في عام ١٧٦٨ م ، وعقب ذلك هزيمة أخرى مني بها العثمانيون أثناء عبور أحد جيوشهم لنهر دينستر في عام ١٧٦٩ م ، وأبهد جميع الجنود العثمانيين في تلك المعركة ، وأغرقت هذه الانتصارات القوى الصليبية الأخرى ، فحاول أهالي شبه جزيرة المورة الثورة ضد الدولة ، وبلغ الغرور مداه حين أعلن الاميرال الروسي « الفنستون » عن عزمه على غزو اسلام بول ذاتها (القسطنطينية) ، ولكن هذا الغرور الصليبي لم يلبث أن اُخمد بعد أن تمكن الاسطول العثماني من الحاق الهزيمة بالاسطول الروسي في عام ١٧٧١ م ، مما اضطر روسيا الى القبول بمقد هدنة في مدينة جورجيو البلغارية ، ولكن الامبراطورة كاترينا الثانية نقضت الهدنة في عام ١٧٧٣ م ، فاندلعت الحرب من جديد ، وأحرز العثمانيون

النصر على الروس في معركة خسر فيها الروس ثمانية
آلاف قتيل على مقربة من مدينة ساستيريا القريبة من
بخارست عاصمة رومانيا ، ولكن تلك الهزيمة لم تفت
في عضد روسيا القيصرية التي كانت تعتبر نفسها وريثة
بيزنطية في زعامة الكنيسة الارثوذكسية ، فعملت الى
تحريض والي مصر علي بك للثورة ضد الدولة
العثمانية ، وقام قائد الاسطول الروسي في البحر
الابيض المتوسط بامداده بكميات كبيرة من الاسلحة
والذخيرة ، مما أمكنه من الاستيلاء على غزة ونابلس
والقدس ودمشق ، وانضم الى علي بك في اعلان التمرد
والي عكا الشيخ طاهر ، وتمكن الحليفان بمعاونة
الاسطول الروسي الفعلية من هزيمة الاسطول العثماني
في صيدا ، وانضم ٤٠٠ جندي روسي الى علي بك
لمساعدته على احكام سيطرته على مصر ، ولكن القائد
محمد بك أبو الذهب الذي بقى على ولائه للدولة
العثمانية تمكن من هزيمة علي بك وقضى على خطره .

وما كاد العثمانيون يقضون على خطر التمرد الذي
باركته روسيا في مصر وفلسطين والشام ، حتى عادت
روسيا في عام ١٧٧٤م الى التحرش بالدولة العثمانية ،

فرحف الفيلد مارشال رومانزوف نحو وارثة فاحتلها
 بعد أن هزم الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم
 محسن زاده ، الذي خشي من الهزيمة فاضطر الى طلب
 هدنة أسفرت عن عقد معاهدة « قينارجة » ، قدمت
 الدولة العثمانية بموجبها مزيداً من التنازلات لروسيا ،
 بل وتعهدت بموجب بند سري في المعاهدة بدفع غرامة
 حربية لروسيا ، وكانت هذه المعاهدة نكسة سياسية
 هزت هيبة الدولة العثمانية ، وأغرقت بها القوى
 الصليبية الأخرى ، بل ان روسيا ذاتها نقضت المعاهدة
 بعد عدة شهور من توقيعها حين استولت جيوشها على
 بلاد القرم التي نصت المعاهدة على استقلالها تحت
 الحماية العثمانية ، واشتطت في تحديها ، فأبرمت مع
 النمسا حلفاً سرياً اتفقا بموجبه على مهاجمة اسلام بول ،
 واعادة احياء الامبراطورية البيزنطية ، وتعيين الفرانديق
 الروسي الارثوذكسي قسطنطين بن بولس امبراطوراً
 عليها .

وفي عام ١٧٨٧ م بلغ الخطر الصليبي مداه حين
 قامت الامبراطورة كاترينا الثانية بجولة في بلاد القرم ،
 حيث قابلت اثنامها ملك بولونيا ، وامبراطور النمسا ،

واتفقت معهما على تشكيل حلف صليبي مقدس ضد
 الأتراك ، ومشى الثلاثة في موكب حافل ومروا من تحت
 لافتة كتب عليها « الطريق الى بيزنطية » وبدأ المتحالفون
 نشاطهم الحربي بهجوم كاسح قام به القائد الروسي
 الجنرال بوكمكين على مدينة أوزي ، واستيلائه عليها ،
 وحاول امبراطور النمسا يونس الثاني الاستيلاء على
 مدينة بلغراد ، ولكن الجيش العثماني تمكن من هزيمة
 الجيش النمساوي ، ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد
 المتحالفين الصليبيين الذين صعدوا هجومهم ضد
 العثمانيين فاحتلوا مدينة بندر ، ومعظم الفلاح والبغدان
 وبسارابيا ، ونجحوا في الاستيلاء على بلغراد وأعادوا
 سيطرتهم على بلاد الصرب *

وفي تلك الاثناء حدثت مفاجأتان كان لهما أكبر
 الأثر في ازالة الخطر عن الدولة العثمانية ، فقد توفي
 امبراطور النمسا فجأة ، وتصادف ذلك مع قيام الثورة
 الفرنسية ضد الملك لويس السادس عشر ، فاضطر
 الملك النمساوي الجديد ليوبولد الثاني الى تجميد
 نشاطه الحربي في الحلف ، لينشغل في اتخاذ الترتيبات
 لحماية بلاده النمسا من خطر امتداد لهيب الثورة

الفرنسية اليها ، وكان في مقدمة هذه الشرائيات عقد
معاهدة «ستوا» ، في عام ١٧٩٠م ، مع الدولة العثمانية ،
وبذلك زال خطر التحالف الروسي النمساوي نهائيا عن
الدولة العثمانية .

وفي عام ١٧٩٨ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في قيام نابليون بونابرت بأمر من قيادة
الثورة الفرنسية بغزو مصر ، وتمكن من الاستيلاء
عليها ، ولكن العثمانيين سارعوا لمواجهة هذا الخطر ،
وتحالف معهم في ذلك الد أعدائهم من روس ونمساويين
وانكليز ، الذين ساءهم أن تسيطر فرنسا الجمهورية
على مصر ، ولم يطل الأمر بفرنسا حتى اضطرت الى
الانسحاب من مصر ، وأرسلت الجنرال سيبستيان
لازالة الفتور في العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية ،
ونجح سيبستيان في مسعاه ، مما أغضب روسيا التي
سارعت الى الاستيلاء على بلاد الافلاق والبغدان في عام
١٨٠٦ م ، مما أدى الى نشوب الحرب من جديد بين
الدولة العثمانية وروسيا ، وانضمت انكلترا الى روسيا
وأرسلت اسطولها البحري بقيادة اللورد «دوق وورث»
لمحاصرة الدردنيل ، وطلبت من سفيرها في اسلام بول

الطلب من الدولة العثمانية تسليم قلاع الدردنيل
وجميع سفن الاسطول العثماني الى الانكليز ، والتنازل
عن الافلاق والبغدان الى روسيا ، وطرد الجنرال
الفرنسي سبستيان من اسلام بول ، واعلان الحرب
على فرنسا ، واذا رفضت الدولة العثمانية هذه المطالب
فان الاسطول الانكليزي سيهاجم اسلام بول ويدخلها
عنوة ، وكان من الطبيعي أن ترفض الدولة العثمانية
هذه الشروط المهينة ، مما دفع انكلترا الى تنفيذ
وعيدها ، فافتحم الاسطول الانكليزي الدردنيل في عام
١٨٠٧ م واستولوا على ميناء غاليبولي وحطموا السفن
العثمانية المتواجدة فيه ، وكاد السلطان سليم الثالث
يستجيب لمطالب انكلترا ، لولا أن السفير الفرنسي
الجنرال سبستيان حرضه على الصمود في وجه الاطماع
الانجليزية ، فاستقر رأي السلطان على المقاومة ، ونشط
العلماء في اذكاء الروح الحماسية في الجنود والاهالي ،
وانشغل الجميع في تحصين اسلام بول ، وعندما أدرك
القائد الانكليزي أن سفنه توشك أن تنحصر بين بوغاز
الدردنيل والبوسفور ، اضطر الى الانسحاب مغلفاً

إثناء انسحابه ستمائة قتيل ، وغرقت عدة سفن
بريطانية بفعل قذائف المدافع العثمانية .

وفي عام ١٨١٥ م واجهت الدولة العثمانية خطر
اندلاع عصيان في الصرب بقيادة ميلوش أوبرينوفتش ،
واستمرت الحرب بين العثمانيين والناشرين حتى عام
١٨١٧ م حين رضخت الدولة العثمانية لشروط ميلوش
فعبثته حاكماً على الصرب تحت الحماية العثمانية .

وفي عام ١٨٢٢ م تمكن اليونانيون من احراز نصر
على الجيش العثماني في معركة « التروموبيل » ، وأعقب
ذلك الحاق الهزيمة بالأسطول العثماني في جزيرة ساقز
بعد معركة استشهد فيها حوالي ثلاثة آلاف جندي
عثماني ، فسارع السلطان العثماني محمود الثاني الى
اصدار أوامره الى والي مصر محمد علي باشا لمواجهة
الجيوش اليونانية ، فأرسل محمد علي باشا ولده
ابراهيم باشا على رأس جيش كبير التقى بالأسطول
العثماني في جزيرة رودس ، ثم سار الى جزيرة كريت
فاستولى عليها ، ثم يمم شطر الشواطئ اليونانية ،
وفي تلك الاثناء كانت النجدة النصرانية تتوالى على
اليونانيين ، وانضم الى المتطوعين لنجدة اليونان عدد

كبير من مشاهير الشخصيات الاوربية والامريكية ،
 ومنهم نجل جورج واشنطن محرر أمريكا ، والشاعر
 الانجليزي الشهير اللورد بيرون ، واللورد الانجليزي
 كوشران الذي عينه اليونانيون قائداً عاماً لجيوشهم
 البرية والبحرية ، وزاد من خطورة الوضع قيام روسيا
 بمساعدة اليونانيين ، ثم انضمت النمسا وبروسيا
 وفرنسا الى روسيا في مد يد المساعدة لليونان ، مما
 اضطر الدولة العثمانية أخيراً الى القبول بتوقيع معاهدة
 ان كرمان في عام ١٨٢٦ م ، مقدمة بموجبها تنازلات
 عديدة لروسيا ، ولم تتطرق المعاهدة بأي شكل من
 الاشكال الى الوضع في اليونان ، مما أعطى الدول
 الصراعية الفرصة لاثارة المسألة اليونانية في عام ١٨٢٧ م ،
 حيث طلبت فرنسا وانكلترا وروسيا من الدولة
 العثمانية منح اليونان الاستقلال الكامل ، وحين
 رفضت الدولة العثمانية هذا الطلب ، تحركت الاساطيل
 الصليبية لمواجهة الاسطول العثماني والمصري ، وكان
 الاسطول الفرنسي بقيادة الاميرال « رني » ، والاسطول
 الروسي بقيادة الاميرال هبدن ، والاسطول الانجليزي

بقيادة اللورد كوترنجتون الذي تولى القيادة العامة
 للأساطيل المتحالفة ، وتمكن المتحالفون من تدمير عدد
 من السفن الحربية العثمانية ، وأعلنت الحرب رسمياً
 في ١١ شوال ١٢٤٣ هـ - ٢٦ نيسان ١٨٢٨ م ، ثم
 عقدت الدول الثلاث مؤتمراً في لندن أعلنت فيه استقلال
 اليونان رغماً عن الدولة العثمانية ، وأعقب ذلك استيلاء
 الجيش الروسي على مدينة « ياش » عاصمة بلاد
 البغدان ، ثم تقدمت نحو بخارست عاصمة الافلاق
 فاحتلتها ، ثم قدم القيصر نقولا ليقود بنفسه الجيوش
 الروسية ، ويحاصر مدينة أسكي استانبول ، ثم انسحب
 عنها ليحاصر مدينة وازنة التي استعصت عليه لولا
 خيانة أحد قواد الجيش العثماني المسمى يوسف باشا ،
 فتمكن نقولا من احتلالها ، ثم تقدم نحو مدينة « أدرنة »
 واحتلها ، وأصبحت الطريق إلى « اسلام بول » خالية
 من أية مقاومة ذات شأن ، مما اضطر الدولة العثمانية
 إلى الطلب من بروسيا التوسط في عقد معاهدة صلح
 مع روسيا ، وتم عقد المعاهدة في أدرنة في عام ١٨٢٩ م ،
 وقدمت الدولة العثمانية بموجبها تنازلات جديدة

لروسيا ، كان من أهمها اعتراف السلطان العثماني
بقرارات مؤتمر لندن ١٨٢٧ م التي قضت باستقلال
اليونان عن الدولة العثمانية .

وفي عام ١٨٣٠ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في غزوة فرنسا للجزائر واحتلالها لها ،
واعقب ذلك انشغالها في مواجهة محمد علي باشا والي
مصر الذي تمرد على الدولة ومد سيطرته حتى اخترقت
بعض المناطق في الأناضول التركي .

بيد أن الخطر الصليبي ما لبث أن كثر عن أنيابه
في عام ١٨٥٣ م عندما احتلت الجيوش الروسية بقيادة
جورج تشاكون بلاد الأفلاق والبغدان ، فاحتدمت الحرب
بين الدولة العثمانية والروس من جديد ، وتمكن عمر
باشا القائد العثماني من هزيمة الجيوش الروسية
ودحرها من الأفلاق والبغدان ، وتمكن القائد العثماني
عبد الله باشا من تحقيق انتصارات في جبهة القفقاس ،
فطلب القيصر نقولا النجدة من امبراطور النمسا
فرنسوا جوزيف الذي اعتذر عن تلبية طلب القيصر ،
ولم تلبث الرياح أن هبت في صالح الروس حين تمكن
أسطولهم من تحطيم الأسطول العثماني في ميناء سينوب

الواقع على البحر الأسود ، مما دفع بانكلترا وفرنسا
الى توجيه انذار لروسيا بضرورة ايقاف الحرب ، وكان
وراء اصدار الانذار البريطاني الفرنسي خشيتهما من
قيام روسيا بالاستيلاء على عاصمة الدولة اسلام بول ،
وفي عام ١٨٥٤ م عقدت بريطانيا وفرنسا معاهدة مع
الدولة العثمانية ، تعهدتا بموجبها بمساندتها ضد
روسيا ، ولم تلبث الحرب أن احتدمت وحقق الفرنسيون
في بدايتها نصراً على الروس قرب نهر « ألما » ، ولكن
الحرب لم تحسم لصالح أي من المتحاربين ، ولم تلبث
حدة الحرب أن تضائلت ، وأعقب ذلك عقد مؤتمر
باريس في عام ١٨٥٦ م حيث انتهى الى عقد معاهدة
صلح بين المتحاربين .

وفي عام ١٨٦٠ م واجهت الدولة العثمانية خطراً
جديداً تمثل في غزو فرنسا لبلاد الشام واستيلائها
عليها ، ولم تخرج منها الا بعد أن حصلت على امتيازات
سياسية واقتصادية جديدة .

وفي عام ١٨٦٧ م اندلع الخطر من الصرب وكريد
فاضطرت الدولة الى الانسحاب كلياً من الصرب للتفرغ
لاخماد ثورة كريد ، ولكن الدول الاوربية تدخلت

لمنع العثمانيين من اتخاذ أية إجراءات عسكرية ضد
كريد ، واضطرتها الى حضور مؤتمر عقد في باريس
في عام ١٨٦٩ م ، أجبرت فيه الدولة العثمانية على
منح الاستقلال لأهل كريد .

وفي عام ١٨٧٧ م عادت روسيا فأعلنت الحرب على
الدولة العثمانية بعد أن عقدت معاهدة سرية مع اماره
رومانيا ، (الافلاق والبغدان) ، وحدث تطور مفاجئ
تمثل في سكوت الدول الاوروبية هذه المرة وعدم
مسانعتها للوقوف في وجه روسيا ، ولكن ذلك لم يفت
في عهد العثمانيين فأصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب
القتال على كل مسلم ، وحقق الروس في بداية المعارك
تصرا على حامية نيكوبلي واستولوا عليها ، ولكنهم
انهزموا شر هزيمة أثناء هجومهم على مدينة «بلغنة» الا
أن الروس تمكنوا في نهاية الامر من هزيمة الجيش
العثماني شر هزيمة ، فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني
الى طلب توسط الدول الاوروبية لعقد الصلح مع روسيا ،
الا أنها رفضت الاستجابة له ، لتعطي الفرصة لروسيا ،
لاحرار مزيد من الانتصارات ضد الجيوش العثمانية ،

ولكن الروس فعلا من الاستيلاء على «أدرنة» ، وتقدموا نحو «اسلام بول» حتى وصلوا الى مسافة خمسين كيلو مترا فقط عنها ، مما اضطر السلطان الى ايقاد نايف باشا وسرور باشا الى قيصر روسيا نقولا لمفاوضته مباشرة في عقد معاهدة صلح ، وتم التوصل اليها في ١٨٧٨ م بعد ان قدمت الدولة العثمانية تنازلات عديدة الى روسيا ، ولكن انكثرا خشيت أن تضع هذه المعاهدة حدا لامتيازاتها التي سبق أن حصلت عليها من الدولة العثمانية ، فسارعت الى ارسال اسطولها البحري ليحتل مضيق البوسفور بحجة حماية العاصمة «اسلام بول» من الوقوع في قبضة الروس الذين كانت جيوشهم قد بلغت ضواحيها الغربية ، وتمثل رد الفعل الروسي في قيام الامير غورشاكون بالطلب من السلطان بالسماح بادخال جزء من الجيش الروسي الى داخل اسلام بول بحجة حماية جميع المسيحيين فيها ، ولكن الانجليز اعترضوا على هذا الطلب بشدة ، وهددوا الروس باعلان الحرب ضدهم ، فسحبوا طلبهم ، واكتفوا بابقاء جيوشهم في مواقعها المحيطة باسلام بول ، ثم اجبروا الدولة العثمانية على عقد معاهدة صلح «سان اتيان» تنازلت فيها

الدولة عن جمع ممتلكاتها في أوروبا ، وجوبت المعاهدة بمعارضة شديدة من انكلترا بشكل خاص ومعظم دول أوروبا بشكل عام ، وحدثت بعض الصدامات الحربية بين الروس والانجليز ، وأخيراً توسط الامبراطور الألماني غليوم بينهما ، وتم الاتفاق بينهما على ادخال التعديلات التي طلبها انكلترا على معاهدة « سان استيفان » .

وفي عام ١٨٨١ م هزمت الجيوش العثمانية في تونس أمام الجيوش الفرنسية ، واحتلت فرنسا تونس ، وأعقب ذلك استيلاء إيطاليا على ليبيا في عام ١٩١١ أثناء تسلط الاتحاديين على الدولة العثمانية حيث كانت عصاة الاتحاد والترقي قد وثبتت الى السلطة في عام ١٩٠٨ م ، وخلعت السلطان عبد الحميد الثاني ، وجاءت بالامعة محمد رشاد بدلا عنه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد للدولة سلطة حقيقية ، فلم يبق لها في ظل تسلط الاتحاديين الا الاسم فقط ، وقد أوصل الاتحاديون الدولة الى أضعف حالاتها ، وخاصة عندما أقحموها اقحاما في الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ م التي أسفرت عن هزيمتها شر هزيمة كانت مقدمة للاجهاز عليها اجهازا نهائيا على يد مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩٢٤ م .

فلقد تعمدت في الصفحات السابقة ، أن أسرد بشيء من التفصيل ، ما واجهته الدولة العثمانية من مخططات استهدفت القضاء المبرم عليها ، واستئصال شأفتها ، ونستطيع بمراجعة سريعة للصفحات السابقة أن ندرك أن الدولة العثمانية اضطرت لخوض غمار الحروب ضد أعدائها بشكل متواصل ومستمر خلال الاعوام التالية :

١٣٠١ م (وهي السنة التي أعلن فيها عثمان بن أرطغرل تأسيس الدولة العثمانية) ، ١٣٠٩ ، ١٣٥٢ م ، ١٣٦٥ م ، ١٣٧٠ م ، ١٣٨٩ م ، ١٣٩٤ م ، ١٤٠٢ م ، ١٤٣٦ م ، ١٤٤٢ م ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م ، ١٤٥٢ م ، ١٤٥٥ م ، ١٤٥٦ م ، ١٤٥٧ م ، ١٤٦١ م ، ١٤٦٤ م ، ١٤٧١ م ، ١٤٧٣ م ، ١٤٧٤ م ، ١٤٩٤ م ، ١٥٠٨ م ، ١٥١٧ م ، ١٥٧١ م ، ١٥٩٦ م ، ١٦٠١ م ، ١٦١٤ م ، ١٦٥٧ م ، ١٦٦٠ م ، ١٦٦٤ م ، ١٦٧٢ م ، ١٦٨٣ م ، ١٦٨٧ م ، ١٦٩٥ م ، ١٦٩٦ م ، ١٦٩٧ م ، ١٧٠٩ م ، ١٧١٣ م ، ١٧١٦ م ، ١٧٣٦ م ، ١٧٦٢ م ، ١٧٦٨ م ، ١٧٦٩ م ، ١٧٧١ م ، ١٧٧٣ م ، ١٧٧٤ م ، ١٧٨٧ م ، ١٧٩٨ م ، ١٨٠٦ م ، ١٨٠٧ م ، ١٨١٥ م ، ١٨٢٢ م ، ١٨٢٧ م ، ١٨٢٨ م ، ١٨٣٠ م ، ١٨٥٣ م ، ١٨٦٠ م ، ١٨٦٧ م ، ١٨٧٧ م ، ١٨٨١ م ، ١٩١١ م

وفي عام ١٩١٨ م أقحمت عصاة الاتحاد والترقي الدولة في الحرب العالمية الأولى حيث انهزمت شر هزيمة مما أدى الى اعطاء الفرصة لأعداء الاسلام ، لتنفيذ مخططاتهم للقضاء نهائياً على الدولة العثمانية ، سلطنة ، وخلافة .

ولعل الذين يتهمون الدولة العثمانية بأنها انشغلت طوال عهدها بالحرب والقتال ، يعذرونها في ذلك ، فما احسب أنها كانت تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين أمام تلك الاحقاد الصليبية التي لم تنقطع مكائدها ضدها طوال سنوات حكمها .

بل اني لأعجب كيف لا تكون الدولة العثمانية دولة قتال وحرب ، وهي تواجه كل تلك التحديات والمخاطر المتصلة ، المستمرة ، التي لم يخمد لها أوار منذ أول سنة لتأسيس الدولة العثمانية ، وحتى أواخر أيامها .

أما ما يزعمه المفترون من أن الدولة العثمانية انشغلت بحروبها عن تحقيق أية انجازات حضارية تجسد صدق التزامها بالاسلام ، فذلك فرية لن تلبث أن تنهار أمام هذه الحقائق .

يذكره المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه « بيوك
 تاريخ عمومي » أي « التاريخ العمومي الكبير » ،
 أن عثمان بن أرطغرل كان حريصاً على أن يبنى
 في كل مدينة بيزنطية يفتحها الله عليه مسجداً
 يعين له إماماً من العلماء ليفقه المهتدين الجدد إلى
 الإسلام بأمور دينهم الجديد ، وكان أول مسجد
 أمر ببنائه في عام ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م (قبل
 تأسيس الدولة العثمانية رسمياً) في قلعة قره
 حصار ، وعين العالم الفقيه دورسون إماماً له .

وعندما استولى أورخان بن عثمان على مدينتي
 مالتيه وإزنيك ، بنى في كل منهما مسجداً وإلى
 جانبه مدرسة ، وفي عام ٧٣٦ هـ - ١٣٣٥ م ،
 شهدت الدولة قفزة كبيرة في ميدان النهضة
 العمرانية ، حيث تم تشييد مسجد بورصة الجامع ،
 والحق به بناء كبيراً ليكون مدرسة للمعلوم
 الشرعية ، وفي عام ٨٣٨ هـ - ١٣٣٦ م ، شيد
 عثمان مسجداً ومدرسة كبيرة في مدينة أزميت
 وصفها كارل بروكلمان بأنها كانت بمثابة جامعة

حيث يقول في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ
الشعوب الاسلامية » :

« بعد سقوط مدينة أزميت بيد أورخان ،
عبر أورخان ، بوصفه مسلماً صادقاً ، عن تقديره
للمعرفة ، تلك التي كانت رعايتها من أعظم
عناوين المجد عند الحكام المسلمين في جميع
الاجيال ، فانشأ أول جامعة عثمانية ، وعهد
بإدارتها الى العالم داود القيصري ، وهو عالم تركي
تلقى علومه في مصر » .

* وفي عهد بايزيد بن مراد (بايزيد الصاعقة) ،
بنى العثمانيون مركزاً ضخماً لبناء السفن
واصلاحها (ترسانة) ، في مدينة غاليبولي ،
وتمكنوا في فترة وجيزة من تجهيز نواة قوية
للاسطول العثماني الاسلامي ، قوامها ستون سفينة
مدججة بالسلاح ، وما كانوا ليحققوا هذا النجاح
لولا ما كان يتمتع به المهندسون والصناع الاتراك
من مهارة فنية .

ويعتبر عهد السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من
 فاتح ، على الرغم من انشغاله المستمر بمواجهة
 أعداء الاسلام ، من أكثر العهود العثمانية التي
 شهدت انجازات حضارية بارزة ، فقد احتضن
 المخترع المجري أوربان ، بعد أن اقتنع الفاتح بما
 قُطر عليه من ذكاء ، بأن حديث أوربان عن
 اختراعه لطريقة جديدة لصنع المدافع لم يكن
 حديث مشعوذ كما كان يصفه ملوك أوروبا الذين
 عرض عليهم أوربان اختراعه فرفضوه وأهانوه ،
 وإنما كان حديث عالم موهوب ، فأمدته بكل
 المعدات والمواد ، وأحاطه بالعديد من المهندسين
 الأتراك ، حتى تمكن من تصنيع مدفع ضخم أطلق
 عليه اسم « المدفع السلطاني » ، تيمناً بالسلطان
 الفاتح ، ولم يكتف السلطان الفاتح بذلك الانجاز ،
 بل عهد الى عدد من المهندسين الأتراك بصنع نوع
 جديد من القنابل لاستعمالها في المدفع السلطاني ،
 وسجل التاريخ أن الأتراك كانوا أول من استعمل
 قنابل تحرق كل ما حولها اذا اصطدمت بجسم
 صلب ، وكانت تلك القنابل تتركب من مزيج من

زيت الزيتون والكبريت والملح ومواد أخرى.
وكان أول استعمال لهذه القنابل الحارقة في عام
٨٨٢ هـ - ١٤٧٧ م ، أثناء حصار العثمانيين
لعاصمة البانيا «اشكودرا»

ولم يقف طموح السلطان العالم عند ذلك الحد ،
فطلق يشجع المهندسين المسلمين الاتراك على تطوير
تلك القنابل ، ولم يلبثوا ان اخترعوا نوعاً جديداً من
القنابل المتفجرة التي تنفجر بشدة اذا اصطدمت بجسم
صلب ، وسجل تاريخ الحروب أن السلطان محمد
الفاتح كان أول من استعمل القنابل المتفجرة المصنوعة
على أسس علمية في عام ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م أثناء حصاره
لعقل فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودوس .

ولم يقتصر نبوغ السلطان الفاتح العلمي عند ذلك
الحد ، فقد كان بارعاً في فن الهندسة والعلوم الطبيعية ،
وقد استغل براعته في هذين الحقلين في مواضع كثيرة ،
فعندما قرر إنشاء قلعة روملي حصار على الساحل
الأوروبي ، في مواجهة أسوار القسطنطينية أمضى عدة
أيام مع مهندسيه وهو يستكشف طبيعة الأرض ،

ويدرس طبوغرافيتها ، حتى توصل الى اختيار الموقع
الذي بنيت فوقه ، والذي ثبت بعد انتهاء بنائها أنه
انسب موقع لبنائها .

وحين قرر السلطان الفاتح مفاجأة نصارى
القسطنطينية ، بادخال السفن العثمانية الى ميساء
الخليج عن طريق نقلها براً لمسافة حوالي ثمانية كيلو
مترات ، استغل براعته في العلوم الطبيعية والفن
الهندسي ، فقام بعملیات استكشاف متعددة لدراسة
طبيعة الارض ، حتى امتدى الى انسب المواقع التي
تصلح طريقاً تمر من فوق السفن ، ثم عمد الى تلك
الطريق فطلق يهدمها ، فتارة يردم المواقع المنخفضة
منها ، وتارة يقيم الجسور ، وتارة يدور من حول
جبل ، وتارة يزيل الصخور والاشجار ، حتى تمكن
من فتح طريق طولها حوالي ثمانية كيلو مترات ،
فانسابت السفن فوق الاخشاب التي رصت على طول
الطريق انسياباً لا تقف امامه حفر ولا نتوءات .

وبفكر العالم ، أدرك الفاتح أن انسياب السفن
دمر مصنوعة من الخشب ، فوق ألواح الخشب ،

سيتنج عنه احتكاك قد يؤدي الى اندلاع السنة الذهب
في السفن . وفي خشب الطريق على حد سواء ، فطلق
يدلق أطناساً من الزيت والشحم فوق أخشاب
الطريق ، حتى يمنع الاحتكاك من جهة ، ويسهل عملية
انزلاق السفن فوق الطريق الخشبية من جهة أخرى .

ولعل في هذه الشهادة التي أنقلها عن المؤرخ
الفرنسي البارون كارادوفو الذي أوردها في كتابه
« مفكروا الاسلام » (الجزء الأول) ، خير دليل على
ما بلغت الدولة العثمانية من تقدم علمي وحضاري ،
اذ يقول :

« ان فتح القسطنطينية لم يقيض للفاتح مصادفة ،
ولا لأن الدولة البيزنطية كانت ضعيفة ، بل لأن الفاتح
استخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم » .

واهتم السلطان العالم بالطب ، وبذل جهوداً كبيرة
في دعم العلوم الطبية في زمنه ، فأوعز الى العالم المجاهد
الشيخ أق شمس الدين ، الذي كان بارعاً في علوم
الطب ، بأن يدون علمه لينتفع به الناس ، فالف كتاباً
بمنوان « مادة الحياة » . كان يعتبر لمصور طويلة من

أهم المراجع الطبية التي تبحث في علم الميكروبات
والجراثيم الناقلة للأمراض .

وحين بنى مسجده الذي أطلق عليه اسمه في اسلام
بول ، بنى الى جانبه جامعة علمية ، والحق بهامستشفى
يضم سبعين سريراً ، ليتدرب فيه الطلاب الذين كانوا
يدرسون الطب في الجامعة ، وأطلق على المستشفى اسم
« دار الشفاء » ، واستقدم له أشهر أطباء عصره من
مسلمين وغير مسلمين ، ووضع نظاماً للالقاب العلمية ،
فأطلق على المدرسين الكبار في الجامعة لقب « استاذ » ،
وعلى مساعديهم لقب « معيد » .

وتعتبر أنظمة التعليم ، وأنظمة التخصص العلمي
التي أشرف السلطان الفاتح بنفسه على وضعها ، مفخرة
من مفاخره ، وعلامة حضارية بارزة ينبغي أن تسجل
للعثمانيين المسلمين ، ويمكننا القول أن أنظمة التعليم
في الدولة العثمانية قد قفزت قفزات رائدة على يدي
السلطان الفاتح ، فقد كانت المدارس التي كان
العثمانيون حريصين على انشاؤها في كل مدينة تقع تحت
سيطرتهم ، ومنذ تأسيس دولتهم على يد عثمان بن
أرطغرل ، تدار بأساليب عادية بسيطة ، وكان كل

معلم يتبع الأسلوب الذي يريده ، فلمسا فتح الله
القسطنطينية على المسلمين ، أمر السلطان الفاتح
بتأسيس مدرسة على مقربة من مسجد آيا صوفيا ،
وعهد بإدارتها الى العالم المؤمن الشيخ مولا خسرو ،
ووضع لهذه المدرسة نظاماً خاصاً لم يلبث أن طبق في
جميع مدارس الدولة العثمانية .

وبموجب ذلك النظام ، قسمت الدراسة الى
مرحلتين ، تبدأ الأولى فيها بتدريس العلوم الشرعية ،
والتاريخ الاسلامي ، والعلوم الرياضية ، والعلوم
الطبيعية . وكان على طلاب هذه المرحلة أن يحفظوا أجزاء
معينة من القرآن الكريم ، وكانت الدراسة في هذه
المرحلة تعرف باسم « دروس الخارج » .

وفي المرحلة الثانية ، كان الطلاب يدرسون اللغة
العربية ، ويتوسعون في دراسة الفقه الاسلامي ،
وتعطى أهمية خاصة لدراسة العلوم الرياضية
والطبيعية بتوسع ، وكان بإمكان كل من ينهي هذه
المرحلة التي كانت تعرف باسم « دروس الداخل » أن
يتولى بعض الوظائف العادية في الدولة .

ولم يقف طموح السلطان العالم عند هذا الحد من
النظم العلمي ، بل أصر على تطوير المؤسسات العلمية
وانظمتها ، بشكل يتناسب مع احتياجات الدولة التي
أصبحت آنذاك بمثابة الدولة العظمى .

وكانت الجامعة التي أسسها السلطان العالم الى
جانب المسجد الذي سُمي باسمه ، علامة بارزة في
خطة السلطان التي تهدف الى رفع المستوى التعليمي ،
والعلمي ، في الدولة العثمانية ، وكانت الدراسة في
الجامعة مقسمة الى مرحلتين على النحو التالي :

المرحلة الاولى : ويستطيع الالتحاق بها طلاب
مدرسة أياصوفيا وغيرها من المدارس العثمانية ،
بعد أن يكونوا قد اجتازوا بنجاح المرحلة الثانية التي
تعرف باسم « دروس الداخل » ، وكانت الدراسة في
هذه المرحلة تتم في ثمانية مدارس متجاورة بنيت حول
مسجد السلطان الفاتح ، وهذه المرحلة تسمى
بالدراسة « الموصلة الى الصحن » ، وهي تكاد تكون
مطابقة لنظام الدراسة الجامعية الاولى في جامعاتنا
المعاصرة التي تمنح الطلاب درجة البكالوريوس أو

الليسانس ، وكان بإمكان المتخرجين من هذه المرحلة تسلم وظائف عامة في مؤسسات الدولة ، وخاصة في المدارس .

المرحلة الثانية : وهي أقرب ما تكون الى نظام الدراسة الجامعية العليا المعمول به في جامعاتنا العصرية والتي تمنح الطلاب شهادات التخصص العليا كالماجستير والدكتوراه والاستاذية ، وكانت هذه المرحلة تعرف بمرحلة دراسة « الصحن » ، ولا يلتحق بهذه المرحلة الا الذين اجتازوا بنجاح مرحلة الدراسة « الموصلة الى الصحن » ، وكانت الدراسة في مرحلة « الصحن » تتم أيضا في ثمانية مدارس متجاورة بنيت هي الاخرى حول مسجد السلطان الفاتح .

ومن أجل التمييز بين مدارس المرحلتين ، كانت مدارس الصحن تعرف باسم المدارس العالية ، وتعرف المدارس الموصلة الى الصحن باسم المدارس الصغرى .

وكانت مدارس الصحن ، تعد مؤسسات الدولة العثمانية باحتياجاتها من المؤهلين في جميع الاختصاصات ، من قضاة ومفتين ، وأطباء ، ومدرسين ، ومهندسين ،

وزداعيين ، واقتصاديين ، وقد تميز خريجو مدارس
الصحح بالالتزام الصارم بالاسلام ، عقيدة ، وعبادة ،
واخلاقاً ، واستقامة ، فقد كانت العلوم الاسلامية مادة
اساسية يتلقونها في جميع مراحل دراستهم .

ولقد حرص السلطان العالم على اختيار خيرة علماء
عصره ليقوموا بالتدريس في الجامعة والمدارس العثمانية ،
وكان يبذل قصارى جهده لاستقدام العلماء من شتى
الانحاء ، ويسبغ عليهم رعايته ، ويفدق عليهم من
كرمه ، فتقاطر العلماء على اسلام بول ، لا طمعاً في مال
السلطان ، وانما تقديرأ لحيه للعلم وتكريمه للعلماء .

ولم يمض وقت طويل على تأسيس الجامعة ، حتى
طبقت شهرتها الآفاق ، واصبحت مهوى أفئدة العلماء ،
واصبح التدريس فيها قمة طموح الكثير من علماء ذلك
العصر فقد كان الانضواء في سلك عداد اساتذتها مبعث
لفخر ، ومثار اعتزاز ، وشهادة بالنبوغ العلمي .

ويعتبر عالم الرياضيات التركي علاء الدين بن
محمد المعروف باسم علي كوشجو الذي اناط به السلطان
الفاصح مهمة تدريس العلوم الرياضية في مدرسة

أياصوفيا ، ثم في الجامعة ، واحداً من أفذاذ علماء
 الرياضيات في عصره .
 وكان هذا العالم من سكان مدينة تبريز التي كانت
 خاضعة لسيطرة الأمير حسن الطويل الذي تحالف مع
 نصارى أوروبا ضد الدولة العثمانية ، وحدث أن اختاره
 حسن الطويل ليكون سفيره الى السلطان الفاتح ليعرض
 عليه عقد معاهدة صلح بعد أن هزم أمام جيوش الدولة
 العثمانية ، فانتهر السلطان الفاتح مناسبة قدوم ذلك
 العالم الشهير ، فالح عليه للالتحاق بمدرسة أياصوفيا
 استاذاً للعلوم الرياضية فيها ، فاستجاب العالم ،
 والتحق بالمدرسة ، ثم انتقل الى الجامعة عند تأسيسها ،
 وألف كتابين في العلوم الرياضية ، كانا لفترة طويلة من
 أهم المراجع في العلوم الرياضية ، وأطلق على الكتاب
 الأول اسم « الرسالة المحمدية » ، وعلى الآخر « الرسالة
 الفتحية » ، تيمناً باسم السلطان محمد الفاتح ، وتقديراً
 لرعايته للعلم والعلماء .

* وعندما انتصر السلطان سليم الأول على شاه
 العجم اسماعيل ، واستولى على عاصمته تبريز ، حرص

على استقدام أربعين من أشهر صنّاع تبريز الى اسلام
بول ، لينسأهموا في تقديم النهضة العمرانية فيها .

في عهد السلطان سليم

✽ وفي ٢٤ محرم من عام ٩٢٤ هـ (١٥١٨ م) ، حضر
السلطان سليم أول صلاة جامعة أقيمت في المسجد الذي
أمر ببنائه في دمشق على مقربة من قبر محي الدين بن
العربي ، وبنى الى جانبه مدرسة كبيرة ، ولا يزال
المسجد والمدرسة حتى يومنا هذا من أبرز المعالم
الحضارية في دمشق .

✽ وفي عهد السلطان سليمان القانوني أتم بناء
مسجد ومدرسة على مقربة من قبر أبيه السلطان سليم ،
ويشتمل هذا المسجد والمدرسة حتى يومنا هذا شاهد
صدق على مدى ما بلغته المهارة الهندسية التركية من
زمن وفن ، وواحد من أبرز المعالم الحضارية العثمانية
الاسلامية . كما أمر بتشديد موضع نظام لجر المياه الى
اسلام بول ، قام بتنفيذه المهندس التركي الشهير سنّان
الذي بنى خمسة أقنية فوق قنوات خاصة لتوزيع المياه
على جميع أنحاء اسلام بول .

✦ وفي عهد السلطان أحمد خان الثالث (١٧٠٣م - ١٧٣٠م) ، أمر بتأسيس دار للطباعة في اسلام بول ، وزودت بمطبعة حديثة .

✦ وفي عهد السلطان محمود خان الاول أمر ببناء مكتبة ضخمة بجوار كل من مسجد الفاتح ، ومسجد اياصوفيا ، ومسجد الوالد في منطقة اكسراي ، بوسط اسلام بول ، ومسجد قلته سراي ، كما أمر ببناء سد لتجميع مياه الشرب أطلق عليه اسم « بغجة كدي » .

✦ وفي عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، أمر بتأسيس عدة مختبرات طبية لفحص واردات الدولة من المواشي والبضائع لضمان عدم تسرب أية مواشي مصابة بأية أوبئة ، كما أمر ببناء مكتبة ضخمة فتح أبوابها لعموم الناس ، ووضع مشروعاً لحفر قناة ضخمة تربط نهر دجلة بالبسفور ، لتسهيل عملية نقل المحاصيل الزراعية والبضائع داخل الدولة بتكاليف قليلة ، ولكن وفاة السلطان حالت دون تنفيذ المشروع ، وفي عهد هذا السلطان تم إقامة مصهر ضخمة لصب

الدفاع في اسلام بول ، كما أمر بتأسيس مدرسة حربية
لتخريج ضباط المدفعية ، وأخرى لضباط البحرية ،
باشراف البارون المجري دي توت .

✽ وفي عهد السلطان عبد العزيز تم وضع مجلة
الاحكام الشرعية في عام (١٢٨٥هـ - ١٨٦٩م) ، ليعمل
بمقتضاها في المحاكم النظامية ، وتعتبر المجلة انجازاً
حضارياً في مجال تقنين الاحكام الشرعية .

ويقال ...

فان الذين يتهمون العثمانيين بانهم لم يتركوا
بصمات حضارية ورامها يتناسون عدة أمور في غاية
الأهمية :

الامر الأول :

انهم عندما يتهمون العثمانيين بالتخلف الحضاري،
ينبغي عليهم ان يأخذوا بعين الاعتبار رأي الدكتور
احسان حقي في تعليقاته على كتاب « تاريخ الدولة العلية
العثمانية » ، الذي يلخصه بقوله :

ان الشيء الذي يجب ان لا نسهو عنه حينما نتحدث
عن الدولة العثمانية ، هو انه يجب علينا ان نقيّمها ،

ونقيم أعمالها ، بالنسبة الى زمانها والى ما كانت عليه
الدول الأخرى من سوء حال بالنسبة الى الأزمان السابقة ،
لا أن نقيمها بالنسبة الى زماننا .

وأحسب أن الذين يوجهون الاتهام للعثمانيين
سيخجلون من أنفسهم ، لو أنهم تقيّدوا برأي الدكتور
احسان حقي ، ذلك أنهم سيدركون أن ما حققه
العثمانيون من انجازات حضارية ، ذكرت بعضها قبل
قليل ، رغم انشغالهم المستمر في التصدي لمؤامرات
ومكائد أعداء الاسلام ، ينبغي أن يسجل لهم بمقدار
الفخر والاعتزاز ، ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أنه
كانت لديهم في اسلام بول وحدها ١٥٠ حماماً عاماً ،
في الوقت الذي لم يكن قصر فرساي في باريس يحتوي
على حمام .

الأمر الثاني :

أن الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بأنهم لم
يخلفوا ورائهم بصمات حضارية ، يتناسون أن آثارهم
الهندسية المتمثلة في آلاف المساجد التي ابدتوها في
تركيا ومصر وسوريا وبلغاريا ويوغسلافيا والبايما

وبغيرها من البلاد التي ارتفعت فوقها الرايات العثمانية
الاسلامية ، ما زالت حتى يومنا هذا تستقطب اهتمام
واعجاب العالم اجمع ، وتنتزع من أشهر المهندسين
العالمين شهادات التقدير لما وصلت اليه فنون الهندسة
العثمانية من رقي مهني وفني وذوقي .

وفي هذا الصدد يقول أمير البيان في تعليقاته على
كتاب حاضر العالم الاسلامي :

لقد شاد بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من
الجوامع والقصور والابراج والحصون والمدارس والكن
والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظائرها ،
وأهم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في سواها
والتي تجد منايرها العديدة ساطعة في الفضاء من كل
جانب فتكسب اسطنبول منظراً لا يجده ناظر في غيرها
من المدن لا شرقاً ولا غرباً ، وفي الاستانة أسواق عظيمة
شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها ، منها السوق
الكبيرة التي بناها محمد الفاتح ، وسوق مصر التي
بناها سليمان القانوني (وهما سوقان مسقوفان وفيهما
تفرعات كثيرة في داخلهما يحتاج المرء الى ساعات طويلة

حتى يتجول فيها كلها ، وربما تعب قبل أن ينهي جولته
(المؤلف) .

الأمر الثالث :

ان على الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بجفاف
الفكر ، ونضوب الذوق الفني ، أن يتذكروا ، وخاصة
العرب ، أن الأتراك العثمانيين برعوا في تطوير فنون
الخط العربي ، وفنون الزخرفة سواء منها الزيتية ،
أو المنقوشة على البلاط القاشاني ، ويستطيع المرء العثور
على كنوز فريدة من أصناف الخطوط العربية والزخرفة
في أي مسجد من المساجد التي كان للأتراك العثمانيين
شرف بنائها ، ولعل أنفس فنون الخط العربي والزخرفة
الاسلامية هي تلك التي أمر السلطان مراد الرابع
بتزيين مسجد اياصوفيا بها ، فقام الخطاط التركي
الشهير بيشكجي زادة مصطفى شلبي بكتابة آيات كريمة
من القرآن العظيم بحروف مموهة بالذهب ، وبلغ من
ابداع هذا الخطاط التركي انه استطاع كتابة الأحرف
بحجم كبير لم يستطعه أحد من قبله ولا من بعده ،
اذ بلغ طول حرف الألف وعده عشرة أذرع .

ولقد أحسنت مجلة «الأمة» الزاهرة التي تصدر
عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة
قطر ، حين خصصت حيزاً من عددها الثامن والعشرين
الصادر في ربيع الآخر ١٤٠٣هـ - كانون ثاني ١٩٨٣م ،
للحديث عن الخطاط التركي المسلم حامد إيتاش الآمدي
(١٨٩١م - ١٩٨٢م) ، الذي قدم ، وهو التركي ، ما لم
يستطع تقديمه أحد من العرب ، من خدمات جليلة
لتطوير فنون الخط العربي والزخرفة الإسلامية .

وينبغي أن نشير إلى أن العديد من سلاطين العثمانيين
برعوا في فنون الخط العربي ، ومنهم السلطان عبد
المجيد الأول ، والسلطان عبد العزيز والسلطان مصطفى
الثاني .

الأمر الرابع :

يتناسى الذين يتهمون الأتراك بالتخلف الحضاري
أنهم هم الذين حققوا للبلاد العربية أول تقدم حقيقي
في مجال المواصلات حين مدوا الخط الحديدي الحجازي
الذي ربط ما بين اسلام بول بالمدينة المنورة ، مروراً
بسوريا والأردن ، ثم مدوا فروعاً له تخترق فلسطين

والعراق ولبنان ، وقد كان ذلك انجازاً حضارياً
واقتصادياً رائعاً ، نستطيع ادراك أهميته حين نعلم أن
الدول العربية المعنية فشلت حتى يومنا هذا في إعادة
الحياة اليه رغم مئات الاجتماعات التي يعقدها المسؤولون
فيها لهذا الغرض .

الأمر الخامس :

ويتناسى المفترون ما سجله التاريخ للعثمانيين من
اهتمام بالعلم والعلماء ، وما شيّدوه من مدارس ومكتبات
ومستشفيات ، ومصحات للأمراض العقلية ، ويذكر
أمير البيان شكيب أرسلان أن عدد المدارس التي تدرس
فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية بلغ ١٧١ مدرسة
في اسلام بول وحدها ، كان أشهرها مدرسة أياصوفيا
ومدرسة السلطان أحمد ، ومدرسة السليمانية ، وجامعة
المحمدية التي بناها السلطان الفاتح .

ويذكر أمير البيان أن عدد المكتبات في اسلام بول
بلغ ٤٥ مكتبة تضم ٦٤١٦٢ مجلداً أكثرها مخطوط
بالقلم .

ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أن أي باحث ،
عربياً كان ، أو مسلماً ، أو أجنبياً ، لا يجد مفراً من
الاستعانة بعشرات الآلاف من المخطوطات النفيسة
النادرة التي تزخر بها مكتبات اسلام بول حتى يومنا
هذا ، ويكفيهم فخراً أنهم حافظوا طوال قرون ، ورغم
كل الظروف ، على أندر نسخ من المصاحف الشريفة ،
ومنها مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ،
وقد كان لي شرف التبرك برؤيته في قسم القرآن الكريم
في المكتبة السليمانية في اسلام بول أثناء دراستي في
جامعتها (١٩٥٨م - ١٩٦٥م) .

الأمر السادس :

أن الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بأنهم لم يتركوا
بصماتهم الحضارية الاسلامية في البلاد التي رفعوا فوقها
رايتهم ، يتناسون ما قامت وتقوم به الأحقاد الصليبية ،
ثم الشيوعية ، من حملات قمع وحشية لاستئصال كل
مظاهر الحياة الاسلامية ، في يوغسلافيا ، والبانيا ،
واليونان ، وبلغاريا ، وغيرها من البلدان الأوربية ،
تلك الحملات التي تضاعلت أمام وحشيتها وحشية

محاكم التفتيش في الأندلس ، فلقد بلغ من وحشيته
أن الجنود البلغار لم يكتفوا بقتل المسلمين البلغار في
عام ١٩١٢م ، وإنما عمدوا الى تصفية دمائهم وشربها ،
كما يروى أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على
كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ، وهم يتجاهلون
الحقيقة التي تؤكد أن البذرة الإسلامية الطيبة التي
بذرتها الدولة العثمانية في تلك البلاد ، قد صمدت أمام
تلك المحن ، واستعصت على حملات الاذابة والاستئصال ،
وأنها ما تزال حتى يومنا ، متمثلة في العديد من ملايين
المسلمين في يوغسلافيا ، والبانيا ، وبلغاريا ، وغيرها ،
شاهد صدق على أن الأتراك العثمانيين كانوا رسل
هداية ، ورجال دعوة ، مثلما كانوا صناديد حرب ،
وأبطال قتال .

ما هي حقيقة الغرية التي تزعم أن
السلطان محمد الفاتح أباح
القسطنطينية لجنوده ثلاثة أيام
يفعلون خلالها ما يشاؤون ؟؟

هذه غرية أخرى ، ألصقها الحاقدون المفرضون
بالسلطان العثماني محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ،
زعموا من خلالها أنه قد أعطى لجنوده مهلة ثلاثة أيام
يستباحون خلالها العاصمة البيزنطية ، القسطنطينية ،
يقتلون ، وينهبون ، ويسلبون ، ويعتدون على الأعراس ،
كيفما يشاؤون .

الإساءة ما يفترى المفترون ، وما يصفون .

وقد تولى كبر هذه الغرية عدد من المؤرخين
الأجانب ، وأذكر على سبيل المثال المؤرخ الانجليزي
إدوارد شيبيرد كريسي ، الذي زعم في كتابه « تاريخ
العثمانيين الأتراك » أن السلطان الفاتح ، أنعم به من
فاتح ، قد خطب في جنده قبيل الهجوم الأخير على
القسطنطينية قائلا على حد زعم كريسي :

انني ابيح لكم كل شيء في المدينة ، ولا اريدكم
ان تتركوا فيها شيئاً فيه حياة ، ما عدا الابنية والارض
فقط . . . !

وفي كتاب « أحداث شهيرة في التاريخ » الذي
نشرته في عام ١٩٦٩م ، مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر ، وهي مؤسسة أمريكية برعت في دس السم
في الدسم عبر منشوراتها ، نقل مؤلفا الكتاب صموئيل
تستسون ، ووليام دي ويث ، كلاما زعموا أنه نص
الخطبة التي القاهها السلطان الفاتح في جنده قبل
الهجوم الأخير على القسطنطينية ، وجاء في تلك الخطبة
المزعومة ما يلي :

انني لم اجمعكم في هذا المكان لأبعث روح الحماسة
فيكم ، لأن هذه الروح لا تنقصكم ، ولكنني جمعتكم
لأعرض أمامكم المكافأة والثواب الذي سينالكم بعد
الهجوم المنتظر ، فأمامكم مدينة الكنوز والثروة والجمال
التي تزدحم بها الكنائس والقصور ، انها مدينة المجد
والعز ، التي تشكل قلب العالم ، وهي المدينة التي
سنستبيحونها غداً ، بعد أن وقفت أعواماً طويلة أمام

الأثرak ، وعملت على إضعاف الإسلام ، واتحدت مع أعدائه .. !

ويشتط الحقد بالمؤرخ الانجليزي ادوارد شيبرد كريسبي ، فيزعم ، وبشئ ما يزعم ، أن السلطان محمد الفاتح ، حين دخل القسطنطينية ، أمر بإقامة احتفال ضخم في قصر الامبراطور البيزنطي المقتول ، وأنه أكثر من شرب النبيذ ، ثم أمر بإحضار الابن الاصغر للدوق ناطوراس (لوقاس الناطوري) ، الذي كان وزيرا للامبراطور المقتول ، وأن السلطان الفاتح أراد أن يمارس الفاحشة بالفتى الصغير ، فاعترض أبوه ، فاشتد غضب السلطان وأمر بقتل الوزير ، وابنه ، وجميع أفراد عائلته ..

ومؤخراً انسأقت الموسوعة الامريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حماة الحقد الصليبي ضد الإسلام فزعمت أن السلطان الفاتح ، أنعم به من فاتح ، قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية ، وساقهم الى أسواق الرقيق في مدينة أدرنه ، حيث تم بيعهم هناك .
الا كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا .

أرايتم الى الحقن الصليبي الى أين يشتط به
الهوى ، ويسرح به الخيال ؟

أرايتم الى الحقن الصليبي حين تعمى الابصار ،
ويرين الصدا على القلوب ، فتتجراً على الافتراء بمثل
هذه الأكاذيب التي لا يصدقها عقل ، ولا يقبلها منطق ؟

أرايتم الى الأمانة العلمية كيف يبطل مفعولها حين
يتعلق الأمر بالاسلام والمسلمين ؟

هل يصدق عاقل أن السلطان المؤمن ، الذي
استقبل معركته الأخيرة بالصوم الى الله عز وجل ،
تطهراً ، وتقرباً ، والتماساً لتأييد الله ونصره ، يمكن
أن يقابل نعمة ربه بارتكاب معصية شرب الخمر وارتكاب
الفاحشة ؟

ألا ، تبنت يدا كريسى هذا ، والف تب .

وتبنت يد كل من جرى قلمه أو لسانه بهذه الفرية
اللتيمية .

وينبغي أن أشير ، بادىء ذي بدء ، الى أن الذين
افتروا هذا البهتان العظيم ضد السلطان الفاتح ،
استندوا الى عرف كان سائداً في حروب تلك العصور

يقضي بأنه أيما مدينة يطلب منها الاستسلام ، فترفض
الاستسلام ، فإن من حق فاتحها أن يستبيحها ثلاثة
أيام بلياليها كيفما يشاء ، تأديباً لها لرفضها الاستسلام .

لكن الحقيقة الناصعة كما سنبينها بعد قليل ،
تؤكد أن السلطان الفاتح لم يعمد الى اتباع هذا العرف
حين فتح القسطنطينية ، على الرغم من أنه كان قد
طلب من الامبراطور البيزنطي قسطنطين الاستسلام في
مرتين متتاليتين ، كانت الأولى منهما في مساء السادس
والعشرين من ربيع الأول من عام ٨٥٧هـ ، وفق السادس
من نيسان من عام ١٤٥٣م ، حين أرسل السلطان وزيره
محمود باشا الى الامبراطور يطلب منه الاستسلام ،
ويعطيه الأمان لجميع النصارى على أموالهم وأرواحهم
وأعراضهم وعقيدتهم ، فرفض الامبراطور الاستسلام ،
وكانت المرة الثانية في اليوم الرابع عشر من جمادى
الأولى من عام ٨٥٧هـ ، وفق الثالث والعشرين من أيار
من عام ١٤٥٣م ، ولكن الامبراطور قسطنطين أصر أمام
ضغط مجلس حربه على رفض الاستسلام .

ولقد كان بإمكان السلطان الفاتح بموجب ذلك
العرف ، وبعد أن أئذر الامبراطور البيزنطي بالاستسلام

مرتين ، لا مرة واحدة ، أن يبيع المدينة لجنوده ، ولكنه
لم يفعل ذلك ، لأن التزامه بالاسلام ، وبأخلاق
الاسلام ، يأتي عنده فوق أية أعراف أو اعتبارات أو
مبررات أخرى ، ولأنه كان يطمح الى فتح قلوب أهل
المدينة ، بعد ان فتح أبواب المدينة .

تلك هي الفرية ، فما هي الحقيقة ؟

ان الحقيقة التي تتهاوى أمامها افتراءات الحاقدين،
وبهتانهم ، تؤكد أن السلطان محمد الفاتح ، أنعم به
من فاتح ، لم يبيع القسطنطينية لجنوده لحظة واحدة ،
لا ثلاثة أيام كما يزعم المفترون .

اقول هذا ، وبين يدي أكثر من دليل :

ففي يوم الاثنين ، التاسع عشر من جمادى الأولى
من عام ٨٥٧هـ ، وفق الثامن والعشرين من أيار من
عام ١٤٥٣م ، ندب السلطان الفاتح جنده لصيام ذلك
اليوم تقريباً الى الله ، وتزكية لنفوسهم ، استعداداً
للهجوم النهائي الذي تقرر أن يشن في اليوم التالي .

وما ان أذنت شمس يوم الاثنين بالمغيب ، وأدى
المجامدون صلاة المغرب ، أقبلوا يتناولون افطارهم ،
ثم دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه ، الى
الاجتماع الاخير قبل بدء الهجوم النهائي ، وخطب فيهم
خطبة جاء فيها كما يروي الدكتور سالم الرشيد في
كتابه «محمد الفاتح» ما يلي :

إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية ،
فسيتحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حفظنا ما
تضمنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من التقدير
والتشريف ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً ، أن
الظفر العظيم الذي سنحضره سيزيد الاسلام قدراً
وشرفاً ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا
نصب عينيه ، فلا يصدر عن أي واحد منهم ما يتنافى
هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسوها
بأذى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين
لا يقاتلون .

وحين تنزل نصر الله عز وجل ، كان أول عمل بدأ به
السلطان محمد الفاتح أن خَرَّ ساجداً على الأرض ،
شكراً لله على ما أفاء على المسلمين من نصر مؤزر مبين .

وينقل المؤرخ التركي اسماعيل حامي دنشمند نقلاً
عن المؤرخ التركي دورسون الذي عاصر الفاتح في الجزء
الأول من كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، وصفاً
مؤثراً لأحداث الساعات الأولى التي أعقبت دخول
المسلمين إلى القسطنطينية قائلاً : ما كاد العثمانيون
يدخلون المدينة ، حتى وثب العديد منهم إلى أعالي
الأسوار يزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويرفعون
مكانها الرايات الإسلامية العثمانية ، وفي تلك الأثناء ،
كان العشرات من المجاهدين يرفعون أصواتهم بالأذان
من فوق أسوار المدينة .

وينستطرد دنشمند قائلاً :

دخل السلطان الفاتح إلى المدينة من باب المدفع ،
وتابع مسيره باتجاه كنيسة آياصوفيا ، وكان التأثير
الشديد يعلو وجهه بسبب آثار الدماء والخراب التي

لحقّت بأبنية المدينة ، وعندما وصل الى الكنيسة ترجل
عن حصانه ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على نعمة
النصر ، ثم أمر المؤذن لصلاة الظهر ، فأداها المسلمون
جماعة ، ومنذ ذلك الوقت تحولت الكنيسة الى مسجد ،
وأمر السلطان بالاحتفاظ باسمها القديم ، فأصبح
المسجد يعرف باسم مسجد أياصوفيا ، وشرع المسلمون
في تغطية الصور التي على جدران الكنيسة ، ولكن
دون ازلتها أو اتلافها .

ويصف المؤرخ التركي أحمد رفيق أحداث اليوم
الأول لفتح القسطنطينية ، في الجزء السادس من كتابه
«التاريخ العمومي الكبير» المطبوع باللغة التركية القديمة
ذات الاحرف العربية ، قائلا :

دخل السلطان محمد الفاتح الى القسطنطينية من
الباب المسمى باب المدفع «توب كابي» ، واتجه مباشرة
الى كنيسة أياصوفيا ، فوجد فيها أعداداً كبيرة من
النصارى الذين التجأوا اليها بعد سقوط القسطنطينية ،
فطمأنهم ، وأمتهم على ارواحهم ، ثم أمر باحضار لوقاس
النوطاري ، وزير الامبراطور المقتول قسطنطين ، فأكرمه
أكراماً يفوق الوصف وأهداه صولجاناً مرصعاً بالجواهر

وطلب منه أن يشرف بنفسه على دفن الامبراطور حسب
التقاليد الامبراطورية والكنيسة ، وأعلمه السلطان أن
بإمكان جميع الذين فروا من المدينة أن يعودوا إليها
خلال شهرين ، فمن تأخر عن العودة بعد ذلك تصبح
ممتلكاته من حق الدولة العثمانية .

ويردف أحمد رفيق قائلا :

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد
الاسلام ، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور
التي حرصوا عليها ، وكانت معاملتهم للنصارى خالية
من أي شكل من أشكال التعصب أو الظلم ، ولم يخطر
ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم .

ويصف المؤرخ التركي الصدر الأعظم كامل باشا
في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العثمانية » الساعات
الأولى التي أعقبت دخول المسلمين الى القسطنطينية
قائلا :

وصل السلطان الفاتح الى كنيسة آياصوفيا وقت
الظهر ، فأمر المؤذن فأذن لصلاة الظهر ، ثم صلى
المسلمون صلاة الظهر جماعة في داخل الكنيسة بعد أن

أخليت ممن كان فيها من النصارى الذين التجأوا إليها ،
ولما انقضت الصلاة استدعى لوقاس النوطاري وزير
الامبراطور المقتول ، فأنعم عليه ، وأمره بأن يتخذ
الترتيبات لدفن الامبراطور حسب طقوس الديانة
النصرانية ، وتقاليد العائلة الامبراطورية . ويستطرد
كامل باشا قائلا :

حرص السلطان الفاتح ، على تهدئة روع أهالي
القسطنطينية ، فدعا البطريرك يوركي بناديوس الى
مائدته ، وأكرمه ، وأهداه عصا مرصعة بالجواهر ،
وطلب منه أن يبشر أهالي المدينة بأن المسلمين يعطونهم
الأمان على حياتهم ، ومعتقداتهم ، وأموالهم ، ما داموا
يؤدون الجزية للمسلمين ، وأن بإمكان كل واحد منهم
أن يعود لمزاولة عمله ، واكتساب رزقه ، وأن بإمكان من
فروا من المدينة أن يعودوا إليها والى أملأهم فيها من
غير خوف .

ويروي الدكتور علي حسون في كتابه « تاريخ
الدولة العثمانية » أن السلطان محمد الفاتح - أنعم به
من فاتح - اندفع على رأس المجاهدين لاقتحام
القسطنطينية ، فلما تنزل نصر الله على المسلمين ، حمد

الله وأتني عليه ، وترحم على الشهداء ، وقرأ الحديث الشريف :

« لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الجيش ذلك الجيش ، ولنعم القائد ذلك القائد » ، ثم أوصى جنده فنهاهم عن السلب والنهب ، ثم ترجل عن فرسه ، واستقبل القبلة وخر ساجداً لله شكراً ، ثم توجه الى كنيسة أياصوفيا ، فصلى الظهر بها جماعة ، وأعلن عدد من الروم اسلامهم بين يديه ، وهدأ روع من التجأ من النصارى الى الكنيسة ، وأمنهم على حياتهم ودينهم ، وأموالهم ، وأمر بدفن الامبراطور قسطنطين بما يليق بمكانته لدى قومه ، وأوعز الى البطريق أن يتولى رعاية أمور النصارى دينياً ومدنياً .

وبعد خمسة ايام زار منطقة (غلطة ، وتلفظ قلطه) ، وأمر بتأمين أهلها النصارى على اموالهم ، وحياتهم ومعتقداتهم مقابل أداء الجزية للمسلمين .

ويروي المؤرخ التركي المعاصر باقي كورتولوش في كتابه « السلاطين العثمانيون » المطبوع في استانبول عام ١٩٧٨م ، أن السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من

فاتح ، أظهر الاحترام لمشاعر النصارى من أهل
القسطنطينية ، ولم يتدخل في أمورهم الدينية .
ويروي أمير البيان شكيب أرسلان ، في تعليقاته
على كتاب (حاضر العالم الاسلامي) أن القسطنطينية
شهدت خلال دخول الأتراك موجة من الفوضى والذعر ،
وهذا أمر لا يستغرب أن يقع في كل حرب ، فلما دخلها
السلطان محمد الفاتح نودي بالأمان ، فهدأ روع الناس ،
وساد الهدوء .

ويروي الاستاذ محمد فريد بك المحامي في كتابه
« تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، أن السلطان الفاتح ،
زار كنيسة أياصوفيا ، وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة
اعلانا بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين ، ثم أعلن في
كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة
النصارى ، ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً جديداً
فاختاروا جيناديوس سكولاديوس وكان من أشد
معارضى اندماج الكنيسة الارثوذكسية بالكنيسة
البابوية . (ويقال أن اسمه الاصلي يوركي كورتسيس) ،
فاعتمد السلطان هذا الانتخاب ، وجعله رئيساً لطائفة
الروم ، واحتفل بتثبيته بنفس الابهة والنظام الذي كان

يعمل للبطارقة في أيام ملوك المسيحيين (النصارى) ،
وأعطاه حرساً من العساكر العثمانيين ، ومنحه حق
الحكم في القضايا المدنية والدينية والجنائية بكافة
أنواعها المتعلقة بالأروام ، وعين معه في ذلك مجلساً
مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق
في الولايات للمطارنة والقسس .

ويروي الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في
كتابه « السلطان محمد الفاتح » ، أن السلطان توجه
إلى المدينة في اليوم الرابع بعد فتحها (الأصح والثابت
أن دخول السلطان إلى المدينة كان في اليوم الأول
للفتح) ، وكانت هتافات جنوده تدوي هاتفة ، ما شاء
الله ، ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة ، توقف عن السير ،
وخطب فيمن حوله وقرأ عليهم بلسان عربية فصيح
البشارة النبوية الكريمة :

« لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم
الجيش ذلك الجيش » .

ثم هنا جنوده بالنصر ، وأوصاهم بالثبات وعدم
الفرور ، والتمسك بالفضيلة وحسن المعاملة ، والرافة
بسكان المدينة .

وسار بموكبه المظفر في الشارع المؤدي الى كنيسة
سانت صوفيا (اياصوفيا) ، وترجل أمام الباب ، وانحنى
ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً له
(الاصح أنه سجد شكراً لله) .

ولما اقترب من الباب وصلت الى مسامعه أصوات
خافتة حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي
كانت تقام فيها ، ولما علم راعي الكنيسة بمقدم السلطان ،
فتح الباب على مصراعيه ، فانتاب الناس خوف عظيم ،
وتوجسوا خيفة حينما شاهدوا سلطان العثمانيين بعمامته
الاسلامية الكبيرة ، وانقطعوا عن الصلاة وساد بينهم
صمت رهيب ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وتوجه
السلطان الى المذبح ، فقابله رجال الكنيسة ، وكانوا
مختبئين خلفه وتحت المناضد وخلف الستائر ، فأحسن
السلطان استقبالهم ، وأكد حمايته ورعايته لهم ، وأمرهم
بأن يكملوا صلواتهم من غير خوف أو فزع ، ثم طلب
أن ينصرف الناس الى بيوتهم آمنين على أموالهم ،
وأنفسهم ، وأعراضهم ، فنزل هذا الكلام برداً وسلاماً
على الناس ، وظهرت على وجوههم علامات الراحة
والاطمئنان ، ثم طلب السلطان من أحد المسلمين أن

يؤذن للصلاة من فوق المذبح ، فأصبحت كنيسة
أياصوفيا منذ ذلك الوقت مسجداً من أعظم مساجد
الاسلام .

ويردف الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي قائلا :

وسلك السلطان الفاتح مع أهل القسطنطينية
سياسة التسامح والرافة ، وأمر جنوده بحسن معاملة
من في أيديهم من الأسرى والرفق بهم ، وافتدى عدداً
كبيراً من الأسرى من ماله الخاص ، وخاصة أمراء
اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الاساقفة وهذا
من روعهم ، وطمانهم الى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم
وببوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد
فانتخبوا أجناديوس بطريركاً ، وتوجه هذا بعد انتخابه
في موكب حافل من الاساقفة الى مقر السلطان ، فاستقبله
السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة ، وأكرمه ايما
تكريم ، وتناول معه الطعام ، وتحدث معه في موضوعات
شتى ، دينية وسياسية واجتماعية ، وخرج البطريرك
من لقاء السلطان ، وقد تغيرت فكرته تماماً عن سلطان
العثمانيين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامة ، وشعر
انه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية

راسخة وإنسانية رفيعة ، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم ، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم ، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام .

ولعل قائلًا يقول أن هذه الأدلة التي سقتها من مراجع تركية أو عربية إسلامية ليست مقنعة كونها تصدر عن مسلمين ، ول هؤلاء المتشككين أسوق هذه الأدلة من شهادات المؤرخين النصارى التي تفند ما زعمه المغرضون من أن العثمانيين المسلمين ، ارتكبوا المجازر ، واستباحوا الحرمات والأعراض عند دخولهم القسطنطينية .

✱ يقول باول ويتك (Paul Wettiek) ، في كتابه « تأسيس الإمبراطورية العثمانية » ،
كان النصارى الأرثوذكس يكرهون بشدة أبناء دينهم من النصارى اللاتين (الكاثوليك) ، وخاصة النصارى من أهل جنوه ، بسبب ما كانوا يلاقونه منهم من استغلال واضطهاد ، ولذلك لم يكن غريباً أن ينتشر بين النصارى والأرثوذكس شعار يقول :

إذا كان لا بد من الوقوع تحت سيطرة طرف آخر ،
فإننا نفضل أن نقع تحت سيطرة الأتراك المسلمين ،
من أن يسيطر علينا اللاتين (الكاثوليك) .

* وينقل أمير البيان عن (كارادوكو) المؤرخ
الفرنسي في كتابه (مفكرو الاسلام) أن محمداً الفاتح
يوم دخل كنيسة أياصوفيا ، أراد أن يراعي شعور
النصارى ، فلم يشأ أن يمحو العديد من صور الفسيفساء
وغيرها التي امتلأت بها جدران الكنيسة ، وكان بإمكانه
أن يفعل ، وإنما أمر بأن تغطى بالجص ، لأن الاسلام
يحرم الصور .

ويروي أمير البيان ، أنه عندما دخل المسلمون
القسطنطينية ، التجأت جموع غفيرة من الرجال والنساء
والأطفال الى كنيسة القيامة ، وكانوا يعتقدون أنه متى
وصل الأتراك المسلمون الى قسطنطين الكبير ، سيظهر
لهم ملك في السماء ، فيهزمهم ويطردهم من المدينة ،
فلما اجتاز المسلمون العمود ضج النصارى في الكنيسة
بالعويل ولم يهدأ روعهم الا بعد أن وصل السلطان
محمد الفاتح ، وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وديانتهم .

ويشير أمير البيان الى قرية أطلقها الحاقدون ، فزعموا
ان المسلمين الأتراك ذبحوا كل من كان في أياصوفيا من
النصارى فيقول :

« وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم
فالترك لم يذبحوا هنالك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا
سبيل أولئك الأسرى جميعاً » .

* وتكتسب شهادة الكاتبة الامريكية الدكتورة
ماري ملز باتريك مؤلفة كتاب « سلاطين بني عثمان
الخمسة » ، أهمية خاصة ، ذلك أن هذه المؤلفة الامريكية
تكاد تكون من أشد المؤلفين النصارى حقداً على العثمانيين
بشكل خاص ، وعلى الاسلام ذاته بشكل عام .

تقول الدكتورة ماري ملز باتريك بالحرف الواحد :

والواقع أن السلطان محمد الفاتح قد أظهر تسامحاً
عظيماً مع المسيحيين .

وكان لكل ملة في ذلك الحين (زمن السلطان
الفاتح) رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان
ذاتها مباشرة ، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة ،
وأماكن للعبادة وأديرة ، كما أنه كان لا يتدخل أحد
في مالياتها ، وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة
التي يريدونها .

* ويقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية : الأتراك العثمانيون وحضارتهم » :

لم يستطع العثمانيون أن يشقوا طريقهم الى المدينة الا بهجوم مباشر شتوؤه في ٢٩ نوار (أيار) ١٤٥٣ م ، وصرع الامبراطور في القتال الذي دار في الشوارع حتى اذا انتصف النهار دخل محمد (السلطان الفاتح) بنفسه الى المدينة وأصدر أمره الى جيوشه بوقف المجزرة .

تعليق :

(هذه مغالطة كبيرة من بروكلمان ، فما كان يحدث في ذلك الوقت لم يكن الا قتالا داميا ، كان ضحاياها من المسلمين والنصارى من غير تفريق ، وليس مجزرة كما يزعم بروكلمان في محاولة منه لتشويه سمعة العثمانيين المسلمين) .

ويرد بروكلمان قائلا :

وايا ما كان ، فقد عمل محمد (السلطان الفاتح) على تنظيم أحوال اليونان الروم المفلوبين (سكان القسطنطينية) للتو والساعة ، واعترف وفقاً للفكرة

الإسلامية المعززة بالتقاليد الدينية ، بجميع السلطات الدينية اليونانية ، بل انه زادها قوة الى قوة بأن أوكل اليها أمر القضاء المدني وتطبيق أحكامه على أتباعها ، أي نصارى القسطنطينية .

ويستطرد بروكلمان قائلا :

وكان من أهم أهداف محمد (السلطان الفاتح) ، قبل كل شيء ، أن يعمل على زيادة عدد السكان في العاصمة ، بعد أن تقلص وتناقص (بسبب الهجرة قبل الفتح والفرار قبيل الفتح) ولم يكده يعين في منصب البطريركية ممثلاً حازماً للكنيسة الوطنية ، حتى رجع الى أرض الوطن (القسطنطينية) ، بناء على دعوته (دعوة البطريرك الجديد) عدد غفير من الروم الذين نزحوا عن ديارهم قبل الكارثة .

واني لاكاد أجزم ان هذا التساؤل يكاد يقفز من فم كل قارئ لكلام بروكلمان :

ترى ... هل كان هؤلاء النصارى يعودون الى مدينتهم بهذه السرعة ، لو كان صحيحاً ما يزعمه المفترون من أن العثمانيين المسلمين ارتكبوا المجازر طيلة ثلاثة أيام ضد من بقي في المدينة من النصارى ؟

ويقول المؤرخ المعاصر برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن ، في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » ، الذي عربه الدكتور نبيل صبحي الطويل ، ونشر بالعربية في عام ١٩٦٥م :

لقد أصبح اليونانيون الارثوذكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني (محمد الفاتح) ولم يعودوا أعداء يخشى جانبهم بعد أن تحولوا الى جيران مسلمين .

وفي نظر العالم الاسلامي كانت المسيحية (النصرانية) واليهودية دينين سماويين ، ينظر اليهما المسلمون نظرة تسامح ، وقد انعكست هذه النظرة المتسامحة من المسلمين في المعاملة الحسنة ، والتسامح الكبير الذي يلقاه أتباع الديانة المسيحية (النصارى) في المجتمعات الاسلامية ، بالرغم من موقف المسيحيين كديانة منافسة .

ويستطرد برنارد لويس في موضع آخر من كتابه الحديث عن تسامح الاسلام مع أتباع الديانات الأخرى فينقل عن ت . أ . لورنس قوله :

ولقد نجح الاسلام ، حيث فشلت المسيحية (النصرانية) ، بمزج الايمان العميق والتسامح الديني

الذي لم يشمل فقط غير المسلمين من الأديان الأخرى بل شمل هذا التسامح حتى الهراطقة والكفار .

* وينقل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه « تاريخ أوربا في العصور الوسطى » ، عن المؤرخ النصراني بيكر قوله :

أما الديانة الإسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب (الاصح أن يقول المسلمين) المطلق مع المسيحيين واليهود على حد سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به في ظل حكاهم السابقين .

واذ اكتفى بهذه الشهادات التي سقتها ، ينبغي أن أشير الى أن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية الا بدافع التزامه الصادق بالاسلام العظيم ، وتأسيا بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده ، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم .

مراجع الكتاب

- ١ - كتاب « تاريخ الترك في آسيا الصغرى » ، لغة انجليزية ، تأليف : المستشرق الروسي بارتولد .
- ٢ - كتاب « العرب والأتراك » تأليف : الدكتور عبد الكريم غرايبة ، الناشر : جامعة دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .
- ٣ - كتاب « التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية » تأليف : الصدر الاعظم كامل باشا ، مطبوع باللغة التركية القديمة (احرف عربية) في عام ١٣٢٧هـ استانبول .
- ٤ - كتاب « مأساة بني عثمان » تأليف : قادر مصر اوغلو ، مطبوع باللغة التركية الحديثة (احرف لاتينية) في عام ١٩٧٩م ، استانبول .
- ٥ - كتاب « التاريخ العثماني المصور » تأليف : عبد القادر زاده اوغلو ، مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٨١م ، استانبول .
- ٦ - كتاب « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية » تأليف : الدكتور عمر عبد العزيز عمر ، ١٩٧٥م .

٧ - كتاب « العرب والترك » تأليف : محمد جميل
بيهم .

٨ - كتاب « التاريخ العمومي الكبير » ستة أجزاء ،
تأليف : أحمد رفيق ، مطبوعة بالتركية القديمة
في عام ١٣٢٧ هـ ، استانبول .

٩ - مجلة « المشرق » الصادرة عن ادارة كلية القديس
يوسف ، رئيس التحرير : الأب لويس شيخو
اليسوعي ، عدد شهر آذار من عام ١٩١١ م ،
وعدد شهر تشرين ثاني من عام ١٩١١ م .

١٠ - كتاب « تأسيس الامبراطورية العثمانية » لغة
انجليزية ، تأليف : هيربرت آرمز جيبونز ، ألف
الكتاب في عام ١٧٩٤ م وتم طبعه في عام ١٩١٦ م .

١١ - كتاب « موسوعة التاريخ العثماني » - أربعة
أجزاء - تأليف : اسماعيل حامي دنشمند ،
مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ،
١٩٥٠ ، ١٩٥٥ ، استانبول .

١٢ - كتاب « أركان الدولة العثمانية » تأليف : اسماعيل
حامي دنشمند ، مطبوع بالتركية الحديثة ،
١٩٧١ م ، استانبول .

١٣- كتاب « التاريخ العثماني في نظر الغرب » تأليف :
اسماعيل حامي دنشمندي ، مطبوع بالتركية
الحديثة في عام ١٩٧١ ، استانبول .

١٤- كتاب « تاريخ الشعوب الاسلامية/الأتراك
العثمانيون وحضارتهم » تأليف : كارل بروكلمان .
قام بالترجمة الدكتور نبیه أمين فارس وعنبر
بعلبكي ، مطبوع في عام ١٩٦١ م ، بيروت .

١٥- كتاب « تاريخ جودت » - ١٢ جزء - تأليف المؤرخ
التركي جودت ، طبع بالتركية القديمة باشراف
وزارة المعارف العثمانية في عام ١٣٠٩ هـ .

١٦- صحيفة فلسطين : الصادرة في بيت المقدس ،
عدد ٢٤ / ٨ / ١٩٢١ م .

١٧- كتاب « خطر اليهودية العالمية على الاسلام
والمسيحية » تأليف : عبدالله التل ، ١٩٧٩ م .

١٨- كتاب « جذور البلاء » تأليف : عبدالله التل ،
١٩٧٨ م .

١٩- كتاب « الافعى اليهودية في معازل الاسلام »
تأليف : عبدالله التل .

٢٠- كتاب « أثناسيوس متقذ تركيا وباني نهضتها
الحديثة » تأليف : سليم الصويص المحامي ،
١٩٧٠م ، عمان .

٢١- كتاب « مكائد اليهودية عبر التاريخ » تأليف :
عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني ، ١٩٧٨م .

٢٢- كتاب « موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور
الإسلام الى الوقت الحاضر » تأليف : جورج
ستودارد ، ترجمة : عجاج نويهض ، تعليق :
الأمير شكيب أرسلان ، مطبوع في عام ١٣٩٤هـ -
١٩٧٣م .

٢٣- كتاب « محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في
البلاد العربية » تأليف : الدكتور فاضل حسن ،
١٩٥٨م .

٢٤- كتاب « سلاطين بني عثمان الخمسة » تأليف :
ماري ملز باتريك ، ترجمة : حنا غصن ، كامل
مسروة ، كامل صموئيل مسيحية ، ١٩٣٣م ،
بيروت .

٢٥- كتاب « الغرب والشرق الأوسط » تأليف : برنارد
لويس ، ترجمة : الدكتور نبيل صبحي الطويل ،
١٩٦٥ م .

٢٦- كتاب « الكامل في التاريخ » - ١٣ مجلدات -
تأليف : عز الدين أبي الحسن الشيباني المعروف
بابن الأثير .

٢٧- كتاب « خطط الشام » - ٦ أجزاء - تأليف :
محمد كرد علي ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

٢٨- كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » تأليف : الدكتور
علي حسون ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٢٩- كتاب « السلطان محمد الفاتح » تأليف : الدكتور
عبد السلام فهمي عبد العزيز ، ١٩٣٥ هـ -
١٩٧٥ م .

٣٠- كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » تأليف :
محمد فريد بك المحامي ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ،
تحقيق : الدكتور احسان حقي .

- ٣١- كتاب « التاريخ الحديث - الشعوب الاسلامية -
الأتراك العثمانيون » تأليف : الدكتور عبد العزيز
سليمان نوار ، ١٩٧٣ م .
- ٣٢- مجلة « العربي » الكويت ، عدد محرم ١٤٠٢ هـ -
نوفمبر ١٩٨١ م .
- ٣٣- مجلة « الأمة » قطر ، عدد ربيع الآخر ١٤٠٣ هـ -
كانون ثاني ١٩٨٣ م .
- ٣٤- كتاب « تاريخ العثمانيين الأتراك » تأليف : ادوارد
شمبرد كريسبي ، طبع بالانجليزية في بيروت عام
١٩٦١ م .
- ٣٥- كتاب « أحداث شهيرة في التاريخ » تأليف :
صموئيل نسنسون ووليام دي ويث ، ١٩٦٩ م .
- ٣٦- الموسوعة الامريكية (طبعة عام ١٩٨٠ م) .
- ٣٧- كتاب « محمد الفاتح » تأليف : الدكتور سالم
الرشيدى .
- ٣٨- كتاب « السلاطين العثمانيون » تأليف : باقى
كورتولوش ، طبع بالتركية الحديثة في عام
١٩٧٨ م .

٣٩- كتاب « تأسيس الامبراطورية العثمانية » تأليف :
باول ويتك .

٤٠- كتاب « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى » تأليف :
الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٧٢م .

٤١- كتاب « انتشار الاسلام في الاناضول » تأليف :
عثمان شتين ، طبع بالتركية الحديثة عام ١٩٨١م
استانبول .

٤٢- كتاب « سبيلنا » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد شادي ، دار كوكب الشرق للطباعة والنشر ، دمشق ، سورية
١٩٩١م .

٤٣- كتاب « سبيلنا » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد شادي ، دار كوكب الشرق للطباعة والنشر ، دمشق ، سورية
١٩٩١م .

٤٤- كتاب « سبيلنا » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد شادي ، دار كوكب الشرق للطباعة والنشر ، دمشق ، سورية
١٩٩١م .

٤٥- كتاب « سبيلنا » تأليف : د. محمد عبد الله
ولد شادي ، دار كوكب الشرق للطباعة والنشر ، دمشق ، سورية
١٩٩١م .

الفهرس

مقدمة الكتاب

نبذة تاريخية موجزة عن العثمانيين الأتراك

الدولة العثمانية :

دولة اسلامية المنطلق ، والراية ، والهدف

العثمانيون الأتراك :

صدقوا الله في جهادهم في سبيله

العثمانيون الأتراك :

دفعوا ثمناً باعظاً بسبب موقفهم الصليب في

وجه المطامع الصهيونية في فلسطين المسلمة

العثمانيون الأتراك :

كان انتماءهم الاسلامي فوق اي انتماء

عرقى ، أو قومي ، أو عنصري

التسامح الديني في زمن العثمانيين الأتراك

ميزة ايجابية انكرها الحاقدون

العثمانيون الأتراك :

لعبوا دوراً رائداً في اعادة لحمة الوحدة

الاسلامية، ولم يكونوا مستعمرين ولا مستبدين

الجيش العثماني :

- لم يكن جيشاً انكشارياً تشكل من أطفال
النصارى ، بل كان جيشاً اسلامياً ، قوامه
ابطال الاسلام ١٢٢
- ما هي حقيقة الفتوى الشرعية المزعومة
التي تبيح للسلطين قتل ابنائهم واخوانهم؟ ١٥٧
- ما هي حقيقة الفرية التي تزعم أن الأتراك
العثمانيين لم يكونوا أمة دعوة ، وعدائية ،
وحضارة ، وانما كانوا أمة حرب وقتال ؟ ١٨٧
- ما هي حقيقة الفرية التي تزعم أن السلطان
محمد الفاتح أباح القسطنطينية لجنوده
ثلاثة أيام يفعلون خلالها ما يشاؤون ؟ ٢٦٥
- مراجع الكتاب ٢٨٨
- الفهرس ٢٩٥

رقم الايداع لدى

مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

١٩٨٣/٥/ (٢٦٩)



توزيع

دار الفرقان للنشر والتوزيع

عمان - جبل الحسين - شارع خالد بن الوليد

ص.ب ٩٢١٥١٦ - هاتف ٩٢٧٠٩٣٧